بداية الفتوح فى الشام
أجنادين الأولى أم اليرموك؟

أشرف خالد بن الوليد بمن معه على الشام، وقد سبقه نبأ حضوره، وسبقه صيته وهيبته، وعرف الجميع بنبأ مقدمه عن أبى عبيدة بن الجراح الذى نقل ما أتاه من الخليفة أبى بكر، وأعلن ترحيبه بمقدم خالد وبإمارته بدلاً منه، وهو ما جاء صريحًا فى كتاب الصديق أنه ولَّى خالدًا قتال العدو فى الشام، وبأن يسمع له ويطيع.

هذا الكلام الصريح لا يحتمل تأويلاً، وقد ورد نص كتاب الصديق ـ الذى مر بنا ـ إلى أبى عبيدة فى أكثر من مصدر من المصادر المتقدمة، وورد معه أيضًا نص خطاب اعتذار خالد لأبى عبيدة عن تأميره وقوله فيه إنه ما طلب ذلك قط ولا أراده إذا ولاه الخليفة إياه. وهو ما يلتئم أيضًا مع ما ذكره الواقدى فى فتوح الشام، وأسلفناه، من أن تعليمات الصديق لأمراء الأجناد أنهم إذا اجتمعوا فأميرهم أبو عبيدة.

والذى لا مراء فيه أيضًا، أن خالدًا خرج من العراق إلى الشام، ووجهته اليرموك حيث انعقدت الحشود الرومانية، وتشاور الأمراء الأربعة، واستقروا بمشورة عمرو ابن العاص وبأمر الخليفة ـ على أن يجتمعوا لمواجهتهم فى اليرموك، لأن مثلهم لن يغلب من قلة. ودل على ذلك أيضًا كتاب الصديق إلى خالد بتكليفه بالمهمة، وقد ورد نصه فى أكثر من مصدر من المصادر المتقدمة، وكان الخليفة قد كتبه إليه بعد عتابٍ سبق على تركه العراق ومقدمه لأداء فريضة الحج بالحجاز فى أواخر عام ١٢هـ، دون أن يَعلم أحدٌ من الأعداء ولا من المسلمين إلَّا أقرب خاصته المقربين، بل ودون أن يعلم الخليفة ذاته وقد كان على الحج فى ذلك العام.

ففى خطاب التكليف بإمارة أجناد الشام، عاود الخليفة عتابه لخالد على هذه الواقعة، وفى هذا الخطاب أمر واضح صريح بأن بداية المهمة اللحاق بجموع المسلمين المحتشدة فى اليرموك. ففى هذا الكتاب يقول الصديق لخالد: «سر حتى تأتى جموع المسلمين باليرموك فإنهم قد شجوا وأشجوا. وإياك أن تعود لمثل ما فعلت (واقعة الحج)، فإنه لم يشج الجموع من الناس بعون الله شجيك، ولن ينزع الشجى من الناس شجيك. فليهنك أبا سليمان النية والحظوة. ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل، وإياك أن تدل بعمل فإن الله له المنّ وهو ولى الجزاء».

فالذى لا شك فيه أن خالد كلف بإمارة الجيوش فى الشام بدلاً من أبى عبيدة الذى كانت أوامر الخليفة إلى أمراء الأجناد واضحة صريحة فى أنهم إذا اجتمعوا فأميرهم أبو عبيدة.

ولكن، هل كان وصول خالد إلى الشام على اليرموك مباشرة، وهل بدأت مهمته فى الشام بمعركة اليرموك؟

من الصعب جدًا، إن لم يكن من المتعذر جدًا كما قال عباس العقاد فى «عبقرية خالد» ـ تمحيص التواريخ فى ترتيب الوقائع بعد وصول خالد إلى الشام، فمن يراجع المصادر المتقدمة يجد اضطرابًا شديدًا فى ترتيب الوقائع وفى تاريخها الذى قد يتأرجح بين سنوات، والمشهور أن معركة اليرموك كانت المعركة الأولى لخالد بالشام، ولكننا ننحاز إلى رأى العقاد، وقد انحازت لذلك سلفًا بعض المصادر التاريخية المتقدمة، بأن المعركة الأولى لخالد مع الروم بالشام، كانت فى طريقه إلى اليرموك، وتحديدًا عند موضع «أجنادين» ـ فيما وصفه بعض المتقدمين بأنها معركة «أجنادين الأولى»، وهى غير معركة «أجنادين الثانية» التى دارت سنة ١٥هـ بفارق نحو سنتين عن أجنادين الأولى.

ويرجح رأى بعض المتقدمين، ورأى العقاد، أن البدء بأصغر قوتى الروم وإخلاء الجنوب أو تأمينه ـ أولى وأوفق من البدء باليرموك وترك هذه القوة وراء ظهور المسلمين. يعزز ذلك أولاً أن خالد قمع فى طريقه كما قالت المصادر كل مقاومة

قابلته، واشتبك بالفعل فى طريقه من العراق إلى الشام، بعدة معارك ذكرها الرواة اضطر فيها خالد للقتال، فقاتل وانتصر. وقد أورد النويرى فى «نهاية الأرب»[1]، أن خالد بن الوليد مَرَّ فى طريقه على بُصْرى ـ وهى على الجنوب بين اليرموك وبيت جِبْرين من أرض فلسطين ـ وعليها أبو عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبى سفيان، ولعل الصحيح أو الأصح أن الذى كان ببصرى هو شرحبيل بن حسنة فقط، فقد ذكر الواقدى فى فتوح الشام[2] أن أبا عبيدة بن الجراح: «كان قد وجه شرحبيل بن حسنة كاتب وحى رسول الله ﷺ إلى بُصْرى فى أربعة آلاف فارس. قال فسار على فنائها، وكان على بُصْرى «بطريق» عظيم الشأن والقدر عند الملك وعند الروم اسمه «روماس»، وروى الواقدى ما دار بينه وبين شرحبيل بن حسنة من حوار طويل، انتهى باشتباك الطرفين، وكان تعداد الروم (١٢) ألف فارس، وتفوق عدتهم وعتادهم المسلمين، فدارت الدائرة لصالح الروم، حتى قال الراوى: «فرأيت شرحبيل بن حسنة قد رفع يده إلى السماء وهو يقول: «يا حى يا قيوم يا بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام، اللهم انصرنا على القوم الكافرين» ـ وأضاف الراوى: «فوالله ما أتم شرحبيل كلامه ودعاءه حتى جاء النصر من عند الله العزيز الحكيم، وذلك أن القوم داروا بنا فرأينا غبرة قد أشرفت علينا من صوب حوران. فلما قربت رأينا تحتها سوابق الخيل، فلاحت لنا الأعلام الإسلامية والرايات المحمدية، وقد سبق إلينا فارسان: أحدهما ينادى ويزعق: يا شرحبيل يا ابن حسنة أبشر بالنصر لدين الله، أنا الفارس الصنديد، أنا خالد بن الوليد، والآخر يزعق ويقول: أنا عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق، وأشرفت راية العقاب يحملها رافع ابن عميرة الطائى[3]. قال: «والله لقد خمدت أصوات الروم من زعقة خالد رضى

---

(١) نهاية الأرب. النويرى. ط هيئة الكتاب. ١١٩/١٩، ١٢٠.

(٢) فتوح الشام. الواقدى. ط دار صادر بيروت ٢٨/١ ـ ٣٠ .

(٣) الدليل الذى عبر بالمسلمين المفازة من العراق إلى الشام.

الله عنه». وأقبل المسلمون يسلم بعضهم على بعض، وأقبل شرحبيل بن حسنة إلى خالد بن الوليد، وسلم عليه. فقال خالد يا شرحبيل، أما علمت أن هذه مينا (ميناء) الشام والعراق، وفيها عساكر الروم وبطارقتهم، فكيف غررت بنفسك وبمن معك من المسلمين؟ قال: كله بأمر أبى عبيدة. فقال خالد: أما أبوعبيدة فإنه رجل خالص النية، وليس عنده غائلة الحرب ولا يعلم بمواقعها»، وانتهت صلحًا المعركة التى أورد الواقدى تفاصيلها، وحسبنا ذلك للتأكيد على أن هذه المعركة دارت بالجنوب، وخالد فى طريقه شمالاً إلى اليرموك، وأنها كانت عند موضع «أجنادين».

يؤكد ذلك أن ابن الأثير وإن أورد فى الكامل معركة أجنادين الأولى بعد إيراده واقعة اليرموك، إلاّ أنه أورد أنها وقعت ـ وهو الصحيح ـ لليلتين بقيتا من جمادى الأولى سنة ١٣هـ وهو ما ذكره أيضا الطبرى فى تاريخه (٤١٨/٣). ومن المعروف أن الصديق توفى يقينًا فى جمادى الآخرة، وفى العشرة أيام الأخيرة منه فى أرجح الروايات، وحمل البريد خبر وفاته وولاية عمر ـ حملها إلى اليرموك حال الاشتباكات بها مع الروم، فإذا أحصينا مسافة وصول البريد من المدينة، صار المقطوع به أنه وصل اليرموك بعد شهر على الأقل من وفاة أبى بكر الذى دارت فى حياته معركة بُصرى أو «أجنادين الأولى».

الأمر الذى يقطع بأن معركة اليرموك كانت تالية لها ولم تكن أولى المعارك التى خاضها خالد فى الشام.

لذلك كان النويرى على صواب فيما ذكره «بنهاية الأرب»[1]، وكذلك ابن كثير فى البداية والنهاية (٦/٧)، ذكر أن هذا عند ابن إسحق والمدائنى أيضًا، ـ من أن معركة «أجنادين الأولى» سبقت معركة اليرموك، وأنها كانت فى جمادى الأولى سنة ١٣ هـ، قبل اليرموك، ويبدو أن الذى دعا ابن الأثير إلى إيرادها فى «الكامل» بعد اليرموك، أنه اعتمد فى ذلك على أبى جعفر بن جرير الطبرى،

(١) نهاية الأرب. النويرى ١٩/١٢٠.

فأوردها على منواله، بينما يقتضى السياق ـ والتواريخ أيضًا ـ أن تكون سابقة على معركة اليرموك، وأن بُصرى هى أول مدينة فتحت فى الشام على يد خالد ابن الوليد.

وجدير بالذكر أن البلاذرى أورد فى فتوح البلدان (١/١٣٦) أن أجنادين الأولى سابقة على اليرموك، وأن الطبرى نفسه، أورد فى تاريخه أن معركة «أجنادين» (الأولى) كانت فى شهر جمادى الأولى سنة ١٣هـ[1]، وذكر أيضا أن وفاة أبى بكر كانت لثمان بقين من شهر جمادى الآخرة ١٣هـ، مما يقطع بأن «أجنادين» دارت فى حياته، وقبل اليرموك يقينًا ـ والتى وصل أثناء دورانها بريد المدينة بوفاة أبى بكر وولاية عمر.

وعلى ذلك، فالثابت بأدلة واضحة ومؤكدة، أن معركة «أجنادين الأولى»، كانت فى جمادى الأولى ١٣هـ حال حياة أبى بكر الذى توفى أواخر جمادى الآخرة ١٣هـ، ولم يصل البريد بنبأ وفاته إلى اليرموك أو أثناء المعركة ـ إلّا بعد شهر من وفاة أبى بكر فى أواخر جمادى الآخرة.

ودعانى إلى التوقف عند ترتيب الوقائع والتواريخ فى هذه الجزئية، أنها يجب أن تكون حاضرة بوضوح فى دراسة معركة اليرموك وما دار فيها، وأيضًا فى دراسة العزل الأول الذى قرره أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لخالد بن الوليد. بتولية أبى عبيدة محله فى الإمارة العامة للجيوش فى الشام.

معركة اليرموك

ويبدو أن تتبع مسار وتفاصيل معركة اليرموك، لا يخلو بدوره من صعوبة، مردها إلى اختلاف واضطراب روايات المصادر الأولى. ويرجع ذلك فيما أعتقد، إلى أن الكتابة عن مواقع الشام، كانت بعد زمن ربما قارب مائة سنة من وقوعها، وأن الرواة تقتصر رواياتهم المنقولة على مشاهدة هذا وذاك فى موقع ما، دون

(١) تاريخ الطبرى ٣/٤١٨.

أن تكون الخريطة العامة واضحة مرئية له، وقد لمست أن اضطرابًا حول الوقائع والتواريخ وصل إلى حد أن الواقدى سجل فى «فتوح الشام» أن معركة اليرموك وقعت فى رجب سنة ١٥ هـ، بفارق سنتين ـ وإن كان الشهر صحيحًا ـ عن باقى المصادر، وإلى وقوع تضارب صححناه بالأدلة المثبتة حول أيهما كان أسبق، معركة أجنادين الأولى ببصرى، أم ومعركة اليرموك.

ولابد للباحث أن يدقق ويوفق ـ بعقل وحجة ـ بين الروايات، وأن يعتمد على أوثق المصادر مع التفطن للبحث والموازنة، ومن أبرز المصادر تاريخ الطبرى لابن جرير الطبرى، وتاريخ الكامل لابن الأثير، والبداية والنهاية لابن كثير، ونهاية الأرب للنويرى، دون إهمال فتوح الشام للواقدى، فهو مصدر هام ـ فى أحداث الشام، وإن وقع فى اضطراب شديد فيما يتعلق بمعركة اليرموك بالذات، ربما مرجع الاضطراب أنه دارت على اليرموك أكثر من معركة، ولا يستغنى الباحث عن المراجع الحديثة الموثوق بها وفى مقدمتها «عبقرية خالد» لعباس العقاد، ولا بأس من الإطلال ـ مع الانتباه ـ إلى ما كتبه الجنرال «جلوب» القائد السابق بشرق الأردن وعَرَّبه وعلق عليه الأستاذ خيرى حماد تحت عنوان «الفتوحات العربية الكبرى» ـ فمع التحفظ حول بعض استطرادات الجنرال الإنجليزى، فإنه ساق تصورًا لخريطة العمليات حول منطقة اليرموك واستقصاءات أتيحت له حاول مطابقتها والخروج بمسار المعارك على مسرح العمليات، وبعضها لا يخلو من وجاهة، دون مسايرة الجنرال فيما لا يحسنه بشأن سير الأشخاص أو قراءة النفسيات.

والذى لا مراء فيه أن المنطقة دارت أو أديرت فيها وحولها عدة عمليات قتالية، حاول جلوب أن يخضعها للتحليلات العسكرية من واقع مسرح العمليات، ولكن الذى لا يقع حوله خلاف، أن هناك معركة رئيسية أولى دارت حول اليرموك يغلب أن بداياتها كانت فى حياة أبى بكر فى جمادى الآخرة ١٣هـ ووصلت إلى ذروتها فى رجب ١٣هـ حين وصول البريد من المدينة بوفاة أبى بكر الذى

توفى إلى رحمة الله فى العشرة أيام الأخيرة من جمادى الآخرة ١٣هـ وتولى عمر ابن الخطاب، وبخطاب من أمير المؤمنين عمر إلى أبى عبيدة بن الجراح بعزل خالد بن الوليد وتوليته هو الإمارة العامة ـ كما كان سلفًا ـ للأجناد بالشام.

ومن حق أبى عبيدة علينا، قبل أن نتحدث عن المعركة، أن نسجل له إسماحه وإنكاره لذاته وترحيبه بخالد وبإمارته قبل وبعد وصوله إلى اليرموك.

وقد نقل الواقدى فى «فتوح الشام»[1] أنه لدى علمه بوصول خالد ذهب إليه وهَمَّ بأن يترجل فأقسم عليه خالد ألاَّ يفعل وأقبل عليه وصافحه، وأضاف الواقدى: «وكان أبو عبيدة يحب خالدًا لمحبة رسول الله ﷺ». وأنه قال يومها لخالد: «يا أبا سليمان، لقد فرحت بكتاب أبى بكر الصديق حين قَدَّمك وأَمَّرك علىّ وما حقدت فى قلبى عليك لأنى أعلم مواقفك فى الحرب» فقال خالد: «والله لا فعلت أمرًا إلا بمشورتك ووالله لولا أمر الإمام طاعة لما قبلت ذلك أبدا لأنك أقدم منى إسلامًا وصحبة لرسول الله ﷺ»، وقال فيك: «أبو عبيدة أمين هذه الأمة».

وهذا الموقف بالغ الدلالة على دماثة وسماحة أبى عبيدة، وكرم سجاياه، وإنكاره لذاته، وتزداد دلالة إكباره لقدرات خالد فى الحرب، وإفصاحه بهذا وترحيبه به، على أنه لم يتأثر فى موقفه برأى عمر بن الخطاب المعلوم له فى خالد، على متانة الأخوة الصادقة التى كانت تربطه والفاروق.

لم يَخْفَ على خالد بن الوليد، كما لم يكن خافيًا على الرومان، خطر معركة اليرموك المقبلين عليها، وأنها فاصلة فيما سيليها. ولذلك تحاجز الجيشان أشهرًا لا يشتبكان إلى جمادى الآخرة أو رجب ١٣ هـ على قول بعض الرواة، وكلاهما ينظر مترقبًا كيف سوف يبدأ الآخر هجومه، وجدير بالذكر لقراءة المعركة، أن المسلمين كانوا أصحاب عقيدة راسخة تهون من أجلها الحياة، وأن الاستشهاد غاية لدى معظمهم، بينما تقول الروايات أن تعبئة الروم تورى

(١) فتوح الشام. الواقدى ١/٣٧.

أنهم لا يتمتعون بهذه الروح، فقد حملت أنباء تعبئتهم، أنه قد كثر فيه «تقييد» و «سَلْسَلة» الجنود، فقيل إن عدتهم كانت ٢٤٠ ألف مقاتل، منهم ٨٠ ألفًا «مقيدون»، و ٤٠ ألفا «مسلسلون للموت»، و٤٠ ألفا «مربوطون» بالعمائم لئلا يفروا، و٨٠ ألف راجل.

وكعادة خالد بن الوليد، شرع لساعته فى القيام بمهمته، فنظر فألفى أن جند المسلمين موزعون كل مع أميره، فكل أمير مع أصحابه، فسار خالد فيهم وتحدث إليهم وإلى أمراء الأجناد فحمد الله وأثنى عليه وقال: «إن هذا يوم من أيام الله، لا ينبغى فيه الفخر ولا البغى، أخلصوا جهادكم، وأريدوا الله بعملكم؛ فإن هذا يوم له ما بعده، فلا تقاتلوا قومًا على نظام وتعبئة، وأنتم على تساند وانتشار (أى على رايات شتى)، فإن ذلك لا يحل ولا ينبغى. وإن من وراءكم لو علم علمكم لحال بينكم وبين هذا، فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذى ترون أنه الرأى من واليكم ومحبته». قالوا: فهات، فما الرأى؟ فقال: «إن أبا بكر لم يبعثنا إلّا وهو يرى أنّا سنتياسر، ولو علم بالذى كان ويكون لما جمعكم. إن الذى أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيهم، وأنفع للمشركين من أمدادهم ـ فالله الله، فقد أفرِدَ كلّ رجل منكم ببلد من البلدان لا ينتقصه منه إن دان لأحد من الأمراء ولا يزيده عليه إن دانوا له. إن تأمر بعضكم لا ينتقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله ﷺ شيئًا. هلموا فإن هؤلاء قد تهيأوا، وإن هذا اليوم له ما بعده، إنْ رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردهم، وإن هزمونا لم نفلح بعدها».

وأغلب الظن أن حديث خالد إلى أمراء الأجناد قد وقف عند هذا الحد باستجابتهم إلى ما يسمى فى لغة العسكرية الحديثة «تنظيم التعاون» ـ فقد أعقبه قيام خالد بتقسيم الجيش إلى«كراديس» ـ أى «كتائب» بلغة العصر، ووزعها إلى قلب وميمنة وميسرة.

ولكن المصادر تضيف إلى حديث خالد أنه قال لهم: «فهلموا فلنتعاور الإمارة، فليكن عليها بعضنا اليوم، والآخر غدًا، والآخر بعد غد حتى تتأمروا كلكم، ودعونى إليكم اليوم».. فأمروه.

ولا أميل إلى قبول هذه العبارة الأخيرة المضافة إلى حديث خالد، فقد ثبت لدىَّ من واقع ما أسلفته من أدلة، أن أوامر الصديق إلى الأمراء كانت بأنهم إذا اجتمعوا فأميرهم أبو عبيدة، وأيد ذلك كتاب الخليفة إلى أبى عبيدة فيما يشبه الاعتذار عن سحب القيادة منه وتوليتها خالد بن الوليد، كما أيده كتاب الخليفة إلى خالد، واستقبال أبى عبيدة له لدى وصوله بعد قيامه بالتبشير بمقولة بعد ما أتاه فى كتاب الصديق، وقد أكد الطبرى تأمير خالد على الأمراء فى أكثر من موضع من تاريخه، فأورد فى أحداث سنة ١٣ هـ أن أبا بكر وجه خالد ابن الوليد أميرًا على الأمراء بالشام[١]، وعاد فذكر عند حديثه عن وفاة أبى بكر واستعراض أسماء قضاته وعماله، فقال: «وكان بالشام أبو عبيدة وشرحبيل بن حسنة، ويزيد بن أبى سفيان، وعمرو بن العاص، وعليهم خالد بن الوليد»[٢].

ومع ذلك فإن كانت العبارة الأخيرة صحيحة، فإنها تكون أقرب إلى المراضاة المعنوية لقائد خبر الحرب ويعرف أن معه صناديد قريش وجله الصحابة، وأن أمراء الأجناد قد أتى كل منهم قائدًا على جيش، بمن فيهم أمين الأمة أبو عبيدة بن الجراح، وليس من اليسير أن يفارق كل منهم ما اعتاده من قيادة للجيش المعين أميرًا له، ولكن الظرف بات يستدعى مزيدًا من ضبط الأمور فى ظل «تنظيم معاون» توجبه المعركة، وربما قدَّر خالد ـ إن صحت هذه العبارة الأخيرة ـ أن يكون خطابه أقرب إلى الإقناع لا الفرض، وأن يعطى لكل واحد من هؤلاء الصحابة القادة حقه من التقدير حتى لا تكون فى نفس أحدهم غُصَّة، مع الوضع فى الاعتبار أن «تنظيم التعاون» بين الجيوش، يقتضى تحديدًا لم يكونوا بحاجة إليه عند اجتماعهم ـ قبل المعركة ـ تحت إمرة أبى عبيدة الذى عرف بدمائته، ولكن المعركة المشرفة تستلزم فى تحديد الواجبات، ما لم يكن يستلزمه اجتماع الجيوش ـ وكل عليه أميره ـ قبل القتال الذى لا بد من الإعداد له وتنظيم القوات تنظيمًا يكفل إدارة المعركة والتحكم فى تسييرها أثناء احتدامها.

---

(١) تاريخ الطبرى ٣/٤٠٦.

(٢) تاريخ الطبرى ٣/٤٢٧.

يؤيد ذلك أن المعركة استمرت أيامًا، لم تتغير فيها أو تتبدل قيادة خالد الذى أسلم هؤلاء القادة له القيادة، مما ينبئ أنه جاء أميرًا على الأمراء، وأنهم قدروا ذلك وعرفوه، ويؤيده أيضًا قرار الفاروق بعد وفاة أبى بكر بتولية أبى عبيدة القيادة العامة بدلًا من خالد بن الوليد على ما سوف يجىء.

والذى اتفقت عليه الروايات، أن خالد بن الوليد بادر لفوره ـ بعد خطبته ـ بتعبئة قواده وجنوده على الوضع الملائم للتعبئة الرومانية، تعبئة لم ير الراءون مثلها قط، ولا عرفتها العرب من قبل، فعبأ الجيش المجتمع فى «كراديس»، والكردوس هو القطعة العظيمة من الخيل وهو يعادل الكتيبة بلغتنا اليوم، ويقول الرواة إن عدد الكراديس التى شكلها خالد بلغت ما بين ستة وثلاثين إلى أربعين كردوسًا، وحددها البعض بثمانية وثلاثين كردوسًا، وقال لأركان حربه من القادة: «إن عدوكم كثير وليس تعبية (تعبئة) أكثر فى رأى (رؤية) العين من الكراديس، وقدر خالد أن هذه الطريقة أدعى إلى التنافس بين المقاتلين وتمييزهم بالتبعة والثناء، فجعل الميمنة أو الجناح الأيمن فى كراديس أقام عليها عمرو بن العاص وفيها شرحبيل بن حسنة، وجعل الميسرة أو الجناح الأيسر فى كراديس أقام عليها يزيد بن أبى سفيان، وجعل القلب فى كراديس أقام عليها أبا عبيدة ابن الجراح، ومعه عكرمة بن أبى جهل، والقعقاع بن عمرو، واتخذ خالد مكانه فى مقدمة الجمع على كردوس من الكراديس، وكانت هذه الطريقة ـ طريقة الكراديس ـ هى ما اتبعه فى حربه بنى حنيفة فى قتاله للمرتدين.

وعمد خالد إلى تعيين الأبطال الصناديد، كل على كردوس، فكان كل من القادة عمرو بن العاص وأبى عبيدة بن الجراح ويزيد بن أبى سفيان على كردوس، فضلًا عن قيامهم بقيادة الميمنة والقلب والميسرة، وكان من قادة الكراديس الزبير ابن العوام، وعكرمة بن أبى جهل، وشرحبيل بن حسنة، والقعقاع بن عمرو، وعياض بن غنم، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وحبيب بن مسلمة، وخالد ابن سعيد، وعبد الله بن قيس، وغيرهم من الشجعان المغاوير. وكان القاضى

أبو الدرداء، والقاص أبو سفيان بن حرب، وعلى الطلائع قباث بن أشيم، وعلى الأقباض (ما جمع من الغنائم) عبد الله بن مسعود.

وفى مرور خالد بين الصفوف لتشجيع الجند، قال رجل لخالد: «ما أكثر الروم وأقل المسلمين! فقال خالد: ما أقل الروم وأكثر المسلمين! إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان؛ لا بعدد الرجال. والله لوددت أن الأشقر (يعنى فرسه) براء من توجّيه (إصابته فى باطن حافره)؛ وأنهم أضعفوا (زادوا) فى العدد»، وطفق أمراء الأجناد يبعثون الحماس فى الجنود، ويعظونهم، ونقل الرواة أن المقداد بن الأسود خرج يقرأ على الجيش سورة الأنفال، وخطب فيهم عمرو بن العاص، ومعاذ بن جبل، وبرز القعقاع بن عمرو وعكرمة بن أبى جهل قائدا مجنبتى القلب يرتجزان، واختير يوم القتال فى يوم ريح سموم سافياء (متربة) فى وقت القيظ حيث طاقة المسلمين وقدرتهم على احتمال الحر أقوى من الروم.

نادى خالد فى عكرمة بن أبى جهل والقعقاع بن عمرو، فأنشبا القتال والقعقاع يرتجز، والتحم الناس، وتطارد الفرسان، وحمى الوطيس، وكانت الكرّة الأولى للروم، فلما انكشف المسلمون بعد الهجمة الأولى ثابوا إلى عزماتهم بنخوة الإيمان ونخوة العرض والأنفة، فضربت النساء فى وجوه الخيل وصحن: «إلى أين يا حماة الإسلام وطلاب الشهادة!» وقيل فى رواية لسعيد بن زيد الذى شارك فى المعركة، إن أبا عبيدة بن الجراح مضى يحض المسلمين، وجعل يقول لهم: «عباد الله! انصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم. عباد الله! اصبروا فإن الصبر منجاة من الكفر ومرضاة للرب ومدحضة للكفار. أشرعوا الرماح، واستتروا بالتروس، والزموا الصمت إلاّ من ذكر الله عز وجل».

وصاح عكرمة كأنه يؤنب نفسه: «قاتلت رسول الله فى كل موطن وأفر اليوم؟! ثم نادى: من يبايع على الموت؟» فبايعه أربعمائة من الفرسان المغاوير، فاندفعوا لا يوقفهم شىء، وجبهوا الروم وصدموهم حتى صدوهم، غير حافلين

بما أصابهم، وقتل فى طليعتهم يومئذ عكرمة وابنه ومعظم الفرسان، ولم ينج إلّا جريح مثخن بالجراح.

وروى سعيد بن زيد، أن رجلًا خرج من الصفوف وقال لأبى عبيدة: «إنى أزمعت على أن أقضى أمرى الساعة، فهل لك من رسالة تبعث بها إلى رسول الله ﷺ. فقال له أبو عبيدة: نعم. تقرئه منى ومن المسلمين السلام وتقول له: يا رسول الله! إنا وجدنا ما وعدنا ربنا حقًا».

احتدمت المعركة أيامًا، واهتم خالد ونجح فى خطته العزل بين خيل الروم والمشاة، فتضايقت الخيل وعجزت عن الدوران ففرت هاربة، فأخلى المسلمون لها الطريق لينعزل المشاة فرجع المشاة إلى الخنادق، فلحق بهم المسلمون وأحاطوا بهم من ورائهم، فشاع فيهم الذعر، وسقطوا وهم يولون الفرار فى هوة «الواقوصة» أو وادى الرقاد. وقيل إن موتاهم بالواقوصة كانوا أكثر من قتلاهم فى حومة المعركة، وساهم فى سقوط الآلاف من الروم فى «هوة الواقوصة» أنهم كانوا مقيدين بالعمائم والسلاسل، ويقرنون أنفسهم فى السلاسل كل عشرة فى سلسلة واحدة لتثبيتهم من الفرار، ولكن ذلك أدى إلى تكبيلهم، وإلى جر من يسقط فى الهوة ـ المقيدين معه فى السلسلة، فكان كل واحد عبئًا على المقيدين معه، فكثرت أعداد القتلى فى «هوة الواقوصة»، حتى قدرهم بعض الرواة بثمانين ألفًا.

انكشفت المعركة عن انتصار باهر للمسلمين، طارت بعدْ فلول الروم إلى الشمال نحو دمشق وفِحل وحمص.

قمة الإيثار وإنكار الذات
فى إخفاء توليته وعزل خالد

مضت معركة اليرموك بنصر ساحق تحقق تحت قيادة خالد بن الوليد، ولكن سير المعركة قد تخللته واقعة مؤثرة بلغ فيها أبو عبيدة بن الجراح قمة القمم فى الإيثار وإنكار الذات وتقديم الصالح العام على كل ما عداه. فقد جاء البريد من المدينة والمعركة فى ذروتها، فى شهر رجب من العام الثالث عشر للهجرة،

يحمل خبر وفاة أبى بكر وتولية الفاروق عمر بن الخطاب إمارة المؤمنين، وعزل خالد بن الوليد وتقليد إمارة الجيوش إلى أبى عبيدة بن الجراح.

ويقول الرواة إن رسول عمر بن الخطاب، وكان شداد بن أوس بن ثابت الأنصارى، أتى إلى أبى عبيدة، فأنبأه الخبر ودفع إليه الكتاب، وأضاف أنه أخبر الجند فى طريقه إليه بخبر موت أبى بكر وتولية عمر، فقال له: «أحسنت فقفْ».. أى أن يمسك عن نقل باقى مضمون الكتاب من تأميره وعزل خالد، وأخذ منه الكتاب وجعله فى كنانته، وكتم أبو عبيدة خبر عزل خالد حتى لا يفت فى أعضاد الجيش أثناء المعركة، ولم ينبئ خالدًا بعزله حتى لا يفل عزمه وحتى لا يكسر عليه حربه كما أجابه حينما عاتبه لاحقًا ـ فى دمشق غالبًا ـ لماذا لم يخبره حين أتاه الكتاب، فالمستخلص من تمحيص الروايات ـ أن خالدًا ظل غير عالم بعزله إلى فتح دمشق، ويتحدث بعض الرواة أنه كان على مقدمة الناس فى الطريق إلى فِحْل ودمشق، ولم يَعْلم خالدٌ بعزله إلّا بعد كتابة صلح دمشق باسمه، مع أنه دخل المدينة عنوة ولكنه وأبا عبيدة أخذا بدخول أبى عبيدة من أحد أبوابها على صلح، وكان فتح دمشق فى رجب ١٤ هـ[1]، ووقع خالد كتاب الصلح المكتوب باسمه، وأورد البلاذرى نصه فى فتوح البلدان[2]، وبعدها أظهر أبو عبيدة ما كان من أمر عزل خالد.

يومها عاتبه خالد قائلًا: «يرحمك الله أبا عبيدة: ما منعك أن تخبرنى حين جاءك الكتاب؟ قال أبو عبيدة: إنى كرهت أن أكسر عليك حربك، وما سلطان الدنيا نريد، ولا للدنيا نعمل.. كلنا فى الله إخوة».

كان هذا هو أبو عبيدة، أينما تتابع سيرته تجد مواقف عديدة تجل عن الوصف، توحى بأن هذا الأمين قد خرج من عالم «الذات» وذاب فى الكل، لا يحدوه فى قول أو فعل إلّا ما يتحقق به صالح الإسلام والمسلمين.

---

(١) تاريخ الطبرى ٣/٤٣٥.

(٢) فتوح البلدان ـ البلاذرى ١/١٤٤.

ما بعد اليرموك

مَرّ بنا أن المسلمين حققوا فى اليرموك نصرًا مؤزرًا، وأن الروم انهزموا فيها هزيمة منكرة، ثم جرت بعد هذه الموقعة خطوب، أتيح للمسلمين النصر فيها فى عدة مواقع، حتى فتحت فلسطين كلها وفتح الأردن، وفتحت حمص وسائر مدن الشام، وفتحت القدس صلحًا اشترط أهل المدينة أن يتم مع أمير المؤمنين عمَر بن الخطاب.

على أنه على تعدد الخطوب بعد اليرموك، وإلى العزل الثانى لخالد سنة ١٧هـ. لم يحس المسلمون، ولا يحس القارئ، بأن أبا عبيدة بن الجراح تطاول بإمارته، أو حجب بها دور خالد بن الوليد، سواء قبل إبلاغه بعزله، أم بعد إبلاغه يوم فتح دمشق فى أرجح الروايات.

وكما لم يتغير أبو عبيدة، كذلك لم يتغير خالد، فظل بعد إعلامه بعزله، يحارب طيلة فتوح الشام تحت إمرة أبى عبيدة، فقد أسلم خالد القيادة بلا غضاضة إلى أبى عبيدة الدمث التقى، وقنع بالعمل تحت لوائه، وظلا معًا صورة لتعاون رائع سواء فى فتح دمشق أو ما تلاها، يحفظ كل منهما لصاحبه ما له من مكانة وقدرات.

بلغت أنباء هزيمة الروم إلى هرقل وهو دون مدينة حمص، فارتحل إلى أنطاكية، وطارت فلوله شمالا وتجمعت فى «فحل»، وجعل هرقل مدينة حمص بينه وبين المسلمين، وأمر عليها أميرًا وخلفه فيها، كما كان قد أمَّر على دمشق، بينما تابع المسلمون زحفهم شمالاً حتى وضعوا جنودهم بمرج الصُّفَّر.

فتح دمشق

يختلف الرواة فيما بدأ به المسلمون بعد اليرموك، هل «فِحْل» أم «دمشق» والراجح أنهم بدءوا بمدينة دمشق.. وبذلك أخذ الطبرى فى تاريخه (٣/٤٠٤)،

والنويرى فى نهاية الأرب (١٩/١٥٥) وغيرهما.. وقيل إن أباعبيدة كتب إلى عمر بأيهما يبدأ: فِحْل أم دمشق، فجاءه الجواب بالبدء بدمشق فإنها حصن الشام وبيت مملكة الروم، مع توجيه قوة إلى فِحْل تقف تلقاءها لتشغلها بينما يتجه المسلمون إلى دمشق.

ويتفق الرواة على أن أبا عبيدة وخالدًا قد سارا بالجيش إلى دمشق، وكان على دمشق نسطاس من قبل الروم، وتوزع الجيش حول المدينة، فنزل أبو عبيدة على ناحية، وخالد على ناحية، ويزيد بن أبى سفيان على ناحية، ونزل عمرو ابن العاص وشرحبيل بن حسنة على بقية أبواب المدينة.

وامتنعت المدينة عليهم، فحاصروها سبعين ليلة، وحالوا بين إمدادات هرقل وبين الوصول إليها، واشتد أمر الحصار على الطرفين، حتى علم خالد بن الوليد، وكان لا ينام ولا ينيم، بأن أهل المدينة مشغولون بالاحتفال بمولود للبطريق، يأكلون فى احتفالهم ويشربون، فاغتنم خالد الفرصة، وكان قد اتخذ حبالًا كهيئة سلالم، فلما جن الليل، نهض بمن معه، وتقدمهم هو والقعقاع بن عمرو ومذعور بن عدى وغيرهم، وارتقوا السور، وانحدر خالد ببعض ممن معه إلى الداخل، فأمر بالتكبير وهو الإشارة المتفق عليها لمن بالخارج، بينما قصد خالد إلى الباب وقتل وأجلى من عليه، وفتحه لجنده الذين تدفقوا من الباب ومن على السلم المنصوب على السور، واندفعت أرتالهم إلى قلب المدينة.

ولم يجد أهل المدينة بدًّا، إزاء نجاح خالد ومن معه فى اجتياح المدينة، من أن يلجأوا إلى الحيلة، فقصدوا أبا عبيدة بن الجراح، وبذلوا له الصلح، فقبله منهم، سائلين إياه أن يمنعهم، وفى وسط المدينة التقى من دخلوا من بعض الأبواب صلحًا، مع قوة خالد الذى دخل عنوة، فاحترم المسلمون الصلح الذى قبله أبو عبيدة ودخل عليه، وكُتِبَ كتاب الصلح على ذلك، وقد كتب باسم خالد بن الوليد، وأورد البلاذرى فى فتوح البلدان نص كتاب الصلح الذى عقده

خالد لأهل دمشق[1]، وجاء به: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق: أعطاهم أمانًا على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لا يُهدم ولا يُسكن شيء من دورهم. لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله ﷺ والخلفاء والمؤمنين».. وهذا يؤكد أن أبا عبيدة لم يعلم خالدًا بعزله إلا بعد فتح دمشق على ما تقدم.

ويسوق الواقدى فى فتوح الشام رواية طويلة، يجدر التوقف عندها، وجيزها أن أبا بكر الصديق كان قد بعث كتابًا ـ قبيل وفاته ـ إلى خالد بن الوليد أمره فيه بأن ينزل إلى دمشق إلى أن يأذن الله بفتحها على يده، فإذا تم له ذلك يسير بعدها إلى حمص وأنطاكية[2].

ومن الجائز أن يكون أبو بكر قد بعث إلى خالد بهذا الكتاب قبيل وفاته، وأن النصر الذى يشير إليه فيه ينصرف إلى واقعة أجنادين الأولى حول بُصْرى فى جمادى الأولى ١٣هـ، وتأخر وصول هذا الكتاب إلى ما بعد وفاة أبى بكر، وربما تعطل حامله فى الطريق فوصل بعد وصول البريد الحامل لنبأ وفاته وتولية عمر وعزل خالد وتولية أبى عبيدة.

وما ذكره الواقدى يورى بأن خالدًا تصرف حول وفى فتح دمشق تصرف الأمير العام لجيوش المسلمين، ولم يرد عليه أبو عبيدة أوامره أو يظهر أى تأفف منها، فى حين كان يعلم يقينًا من يوم وصول البريد إليه خلال معركة اليرموك، أن عمر قد عزله وولاه هو الإمارة العامة لأجناد الشام. فيورد الواقدى أن خالدًا ارتحل يريد دمشق، وكان أهلها قد سمعوا ـ فيما يورد الواقدى ـ بقتل بطريقهم وأبطالهم وانهزام جيوشهم ومن أرسلهم الملك بأجنادين (الأولى)، فخافوا وتحصنوا بدمشق وأعدوا آلة الحصار ورفعوا السيوف والطوارق وعلوا على الأسوار ونشروا الأعلام والصلبان، وأن «الأمير» خالد بن الوليد ـ بتعبير الواقدى ـ قد أشرف هو والجيش

(١) فتوح البلدان ـ البلاذرى ـ ١/١٤٤.

(٢) فتوح الشام ـ الواقدى ١/٦٠ ـ ٦٢.

عليهم، وأنه نزل على «الدير» المعروف به، وبينه وبين المدينة أقل من ميل، فلما نزل هناك دعا بالأمراء فأحضرهم، فقال لأبى عبيدة بنص الواقدى: «أنت تعلم ما ظهر لنا من غدر هؤلاء القوم عند انصرافنا عنهم وخروجهم فى أثرنا، فامض بمن معك من أصحابك وانزل بهم على باب «الجابية» ولا تسمح للقوم بالأمان فيأخذوك بمكرهم، ولتكن متباعدًا عن الباب وابعث إليهم بفوج بعد فوج، واجعل قتال الناس دولاً ولا يضيق صدرك من كثرة المقام ولا تبرح مكانك». فقال أبو عبيدة: «حبا وكرامة». ثم إنه خرج فيما يقول الواقدى حتى نزل بباب الجابية.

ويستطرد الواقدى راويًا عن رواته ـ أنه لما نزل أبو عبيدة بباب الجابية أمر أصحابه بالقتال. ثم إن خالدًا استدعى يزيد بن أبى سفيان، وقال له: يا يزيد خُذْ صاحبك وانزل على الباب الصغير واحفظ قومك، وإن خرج إليك أحد لا يكون لك به طاقة فابعث إلىّ حتى أنجدك إن شاء الله تعالى. واستطرد الواقدى بروايته أن خالد استدعى باقى الأمراء تباعًا، وأصدر أوامره إلى شرحبيل بن حسنة ثم إلى عمرو بن العاص ثم بقيس بن هبيرة، وأنه دعا ضرار بن الأزور وضم إليه ألفى فارس للطواف حول المدينة، وبقى خالد على الباب الشرقى.

وهذا الجزء من رواية الواقدى، وما يتلوه مما يفصله من أحداث فى فتح دمشق[1]، لا يستقيم مع ما نقلناه عن الطبرى وابن الأثير وابن كثير والنويرى، وبه أخذ بعض المحدثين فيما كتبوه عن فتوحات الشام، على أنه يصعب إطراح رواية الواقدى إطراحًا تامًا مع ما حملته من تفصيلات طويلة لا يتصور أن تكون كلها اختلاقًا أو نبت خيال، وربما أدى إلى تعدد واضطراب الرواة فى نقلها بدقة، ومع تعذر القطع برأى فى ترتيب الوقائع ترتيبًا دقيقًا، فإن المتفق عليه أن المدينة فتحت صلحًا برغم أن خالد دخلها عنوة، وإن إعمال الصلح كان التزامًا بالقيم الإسلامية وبما قطعه أبو عبيدة، وأن خالد أمضى هذا الصلح وتحرر كتابه باسمه، والأمر الثانى أن التعاون بين أبى عبيدة وخالد فى فتح دمشق كان

(١) فتوح الشام. الواقدى ١/٦٠ ـ ٨٠.

رائعًا، وأن السياق المستخلص من جماع الروايات يؤكد أن خالد لم يكن حتى ذلك الوقت على دراية بعزله، وأن أبا عبيدة لم يعلمه بذلك إلّا بعد فتح دمشق صلحًا وتحرير كتاب الصلح، وأن ذلك كله يشهد لأبى عبيدة بأنه لم ينشغل طوال هذه الخطوب بذاته، ولم يسع إلى إظهار «صدارة»، وأنه قبل عن طيب خاطر تقديم خالد ومبادرته فى إدارة المعركة تقديرًا لملكاته وقدراته الحربية، وشجاعته وبلائه فى القتال، فى إطار معنى «الأخوة» الإسلامية التى دعت هذا الأمين لأن ينكر ذاته إنكارًا لافتًا، فضرب أروع أمثلة الإيثار، وكيف يكون الواحد للكل، ويتجمع الكل فى واحد.

استكمال فتوح الشام

ليس من أغراضنا هنا بيان تفصيلات كل موقعة أو معركة من المعارك التى دارت فى الشام حتى تم الفتح للشام كلها ورفعت فيها أعلام العرب بعد رحيل الرومان.. فتفاصيل المواقع والمعارك موجودة ومتاحة فى المصادر القديمة، كتاريخ الطبرى وتاريخ ابن الاثير والبداية والنهاية لابن كثير وتاريخ ابن عساكر وفتوح الشام للواقدى وغيرها، على أنه يدخل فى أغراضنا بيان هذه الخطوب والمعارك لبيان جهاد أبى عبيدة بالشام منذ مطلع سنة ١٣ هـ حتى لاقى ربه فى طاعون عمواس فى السنة الثامنة عشرة للهجرة، ولبيان مناقب هذا الأمين التى تجلت فى موقفه من خالد بن الوليد قبل وبعد العزل، مثلما تجلت فى مواقف أخرى خلال هذه الفتوح وما صاحبها من خطوب.

فبعض التفصيل الذى التزمناه فى عرض معركتى اليرموك وفتح دمشق، سببه أنهما الركن الركين الذى هيأ لما بعدهما من فتوح الشام، ولأن فيهما ما لا يمكن الاستغناء عنه فى بيان إيثار أبى عبيدة ونكرانه لذاته فى استقباله لإمارة خالد بن الوليد عليه، وتعاونه الخالص معه، ثم فى إخفائه عنه وعن المسلمين خبر عزله الذى جاء ببريد المدينة أثناء احتدام معركة اليرموك، واستمراره بلا أى أنفة عاملاً تحت قيادته إلى أن تم فتح دمشق طبقًا لأرجح الروايات.

وعلى ذلك، فلن نعرض لما سوف يلى ذلك من معارك وخطوب، إلَّا بالقدر اللازم لبيان جهاد أبى عبيدة الذى استمر متواصلًا بالشام لخمس سنوات حتى لاقى ربه، ومناقبه العديدة التى صادقت رأى الرسول ﷺ حين وصفه بأنه «أمين الأمة»، وصادقت رأى أبى بكر وعمر وكبار الصحابة فيه.

حديث حصن أبى القدس

روى الواقدى فى فتوح الشام[1]. حديث هذا الحصن الذى يقع فى «مرج» يسمى مرج السلسلة، يقع بين عرقة وطرابلس، وبإزائه دير وسوق عظيم، فَرَغَّب معاهد نصرانى ـ رَغَّب أبا عبيدة بعد فتح دمشق، وقبل أن يتجه إلى «فِحْل»، أن يوجه حملة إلى هناك، وكان فى تقديره أن ينتدب للمهمة خالد بن الوليد، ولكنه استحى من أن يطلب إليه ذلك إثر علمه بنبأ عزله، وآثر أن ينادى فى الناس أيهم يهب نفسه لله تعالى فى هذه المهمة، فوثب إليه عبد الله بن ذى الجناحين جعفر بن أبى طالب، وألح فى أن يخرج فى هذه الحملة، وقال لأبى عبيدة: «أنا أول من يسير مع هذا البعث يا أمين الأمة»، ومع فرح أبى عبيدة بابن ابن عم رسول الله ﷺ، طفق يختار الرجال والفرسان، كان فيهم أبو ذر الغفارى، وعبد الله بن أُبى، وعامر بن ربيعة، وعبد الله بن أنيس وغيرهم، وعقد اللواء لعبد الله بن جعفر على راية سوداء.

ويروى الواقدى فى رواية طويلة، أن المعركة احتدمت مع جيش الروم، وأن الدائرة جعلت تدور على المسلمين، وواجهوا خطرًا كبيرًا وفيهم عدد من الصحابة ومن أهل بدر، فضلًا عن عبد الله بن جعفر.. فطار عبد الله بن أنيس، وكان محبًّا لذى الجناحين جعفر بن أبى طالب والد عبد الله، طار إلى أبى عبيدة يستنجده، ويصف له ما سوف يُصاب به هؤلاء السابقون، فجعل أبو عبيدة يعاتب نفسه على من بعثهم من كبار الصحابة فى هذه الحملة، وعلى تعجله

(١) فتوح الشام. الواقدى ٨٣/١ وما بعدها.

فى الدفع بابن ابن عم رسول الله ﷺ، الذى استشهد أبوه جعفر بن أبى طالب ـ ذو الجناحين، فى هذه البقاع، وجعل أبو عبيدة فى لومه لنفسه يقول: «إنا لله وإنا إليه راجعون! أيصاب عبد الله بن جعفر ومن معه تحت رايتك يا أبا عبيدة وهى أول إمارتك؟!».

طفق أبو عبيدة ينظر فيمن حوله ليتخير القادر على نجدة المسلمين فى هذا الموقف العسير، فطالعه خالد بن الوليد الذى استحى سلفًا من انتدابه للحملة، هنالك غالب أبو عبيدة حياءه، فقال لخالد على استحياء: «يا أبا سليمان! سألتك بالله أن تلحق بعبد الله بن جعفر فأنت المعد لها».

فلم يتردد خالد بن الوليد فى إعلان ترحيبه بالمهمة، وقال لأبى عبيدة: «ما كنت أنتظر إلّا أن تأمرنى»، هنالك أفصح أبوعبيدة عما كان قد ألم به وحال بينه وبين انتداب خالد، فقال له شبه معتذر «استحييت منك يا أبا سليمان!» فما تردد خالد أن قال له: «والله لو أُمِّر علىّ طفل صغير لأطيعن له، فكيف أخالفك وأنت أقدم منى إيمانًا وأسبق إسلامًا.. سبقت بإسلامك مع السابقين، وسماك رسول الله بالأمين. فكيف ألحقك يا أبا عبيدة أو أنال درجتك؟ إنى أشهدك أنى قد جعلت نفسى حبيسًا فى سبيل الله». فقال له أبوعبيدة وقد قرت عينه«ألحق بإخوانك يا أبا سليمان. يرحمك الله».

يروى الواقدى أن خالد بن الوليد وصل إلى ساحة المعركة والقتال بين المسلمين والروم على أشده، والمسلمون يلاقون بأسًا عظيمًا، ولكنهم صامدون لا يريمون، فطار إليهم خالد بمن معه وفيهم الفارس المغوار ضرار بن الأزور، فانقلبت موازين المعركة، ودان النصر للمسلمين.

ويروى الواقدى أن أبا عبيدة كتب إلى عمر يخبره بما فتح الله عليه، ويطرى خالدًا ويثنى عليه وعلى ما يبذله، ويسأل أمير المؤمنين أن يكتب إلى خالد يستشيره أيكون المسير بعد ذلك إلى هرقل أم إلى بيت المقدس. ولا يفوت هذا الأمين، أن ينقل إلى أمير المؤمنين ما يتكلم به خالد ويقوله: «الحمد لله الذى

قضى على أبى بكر وكان أحب إلىّ من عمر، والحمد لله الذى ولى عمر، وكان أبغض إلى من أبى بكر ثم ألزمنى حبه».

ولا أحسب أن صنيع الرجلين بحاجة إلى تعليق!

فتح فِحْل

١٣ هـ

ما كاد أبو عبيدة يفرغ من فتح دمشق، ثم الحملة على حصن أبى القدس، حتى نهض إلى «فِحْل»، حيث تجمعت فلول الروم، فاستخلف على دمشق يزيد ابن أبى سفيان، وسار هو على رأس الجيش، وعلى المقدمة خالد بن الوليد، وعلى الناس شرحبيل بن حسنة، بينما تولى هو ـ أى أبو عبيدة ـ إحدى المجنبتين، وعلى المجنبة الأخرى عمرو بن العاص، وعلى الخيل ضرار بن الأزور، وعلى المترجلين عياض بن غنم.

وقد سميت هذه الغزوة بذات «الرّدغة»، بسبب الأوحال الموجودة بأرض المعركة، وجدير بالذكر أن هذه الأوحال التى افتعلها الروم كمكيدة للمسلمين، هى التى جعلت الدائرة تدور عليهم، فقد ظفر المسلمون من الجولة الأولى، وركبوا المعركة.

فلم يجد الروم أمامهم فى فرارهم سوى تلك الأوحال، فحاق بهم تدبيرهم، وقيل إن الروم خسروا يومها بين «فِحْل» و«الرّدغة» ـ نحو ثمانين ألفًا، لم يفلت منهم إلّا الشريد! وسار بعدها أبو عبيدة وخالد ميممين شطر حمص.

فتح بلاد ساحل دمشق

١٣ هـ

كان أبو عبيدة قد استخلف قبل سيره إلى «فِحْل»، يزيد بن أبى سفيان، ثم ما لبث أن انتدبه إلى البلاد الواقعة بساحل دمشق، فخرج يزيد وعلى مقدمته

أخوه معاوية بن أبى سفيان، فسار إلى مدن صيدا وبيروت وجُبَيْل وَعَرْقة، ففتحها فتحًا يسيرًا.

فتح بيسان وطبرية

١٣ هـ

قال الرواة، إنه بعد الفراغ من واقعة «فِحْل» انتدب أبوعبيدة شرحبيل بن حسنة إلى «بيسان»، وأبا الأعور وبعض القواد معه إلى طبرية، فنهض شرحبيل بالناس ومعه عمرو بن العاص، إلى بيسان، فنزلوا عليها، فحصروهم أيامًا، ثم إنهم خرجوا إليهم فقاتلوهم، فانتصر المسلمون على من خرج إليهم، وصالحوا بقية أهلها على صلح دمشق.

ويقول الرواة إن أهل طبرية، وهى مدينة على بحيرة طبرية، بلغ أهلها خبر بيسان وأبو الأعور قائم إزاءها، فآثروا الصلح، وصالحوا أبا الأعور على أن يبلغهم شرحبيل بن حسنة، ففعل، وتصالحوا كما تصالح أهل بيسان على صلح دمشق وعلى أن يشاطروا المسلمين المنازل فى المدائن، وما أحاط بها مما يصلها، وسيرد أن أبا عبيدة بعد أخذ العهود، اتخذ قرارًا عامًا برد الأسرى والأهالى إلى أراضيهم على أن يؤدوا الجزية وخراج الأراضى.

إلى اليرموك ثانية

أورد الطبرى فى تاريخه (٥٧٠/٣)، ضمن أحداث السنة الرابعة عشرة للهجرة، أن أبا عبيدة بن الجراح دخل فى تلك السنة دمشق فشتا بها، فلما أصافت الروم سار هرقل حتى نزل أنطاكية ومعه من المستعربة لخَم وجذام وبَلْقيْن وبَلِىّ وعامله دغسان، ومعه من أهل أرمينية مثل ذلك، ومن هناك أرسل هرقل لقتال المسلمين جيشًا فى مائة ألف مقاتل، فنهض أبو عبيدة لقتالهم، وسار إليهم على رأس أربعة وعشرين ألفًا، فالتقوا فى اليرموك فى رجب سنة

خمس عشرة فاقتتل المسلمون والروم اقتتالاً شديدًا حتى دُخِل عسكر المسلمين، وقاتل نساء من نساء قريش بالسيوف حين دخل الروم العسكر فسابقن الرجال فى القتال، وكان قد انضم للمسلمين حين ساروا إلى الروم ناس من لَخْم وجذام، فلما رأوا احتدام القتال فروا إلى القرى القريبة. ولكن العرب صمدوا وأحسنوا البلاء، فهزمت الروم وجموع هرقل التى جمعها، وأصيب منهم ومن أهل أرمينية والمستعربة عشرات الألوف، وقتل القائدان الصّفلار وباهان.

فلما هزمت الروم بعث أبو عبيدة عياضَ بن غَنْم فى طلبهم، فسلك الأعماق حتى بلغ مَلَطْية، فصالحه أهلها على الجزية، ولما سمع هرقل بذلك، بعث إلى مقاتلتها ومن فيها، فساقهم إليه، ثم أمر بملطْية فحرقت!

وهكذا كان المسلمون تحت إمرة أبى عبيدة يبادرون إلى الصلح حين تقوم دواعيه، وينفتح الطريق إليه، بينما كان الرومان يتعاملون مع بلاد الشام بمنطق المستعمر المحتل فيبادرون إلى التحريق إذا ضاقت بهم السُبل ولم تسر الأمور وفق هواهم!

موقعة مرج الروم

ذكر المؤرخون هذه الموقعة فى أول السنة الخامسة عشرة للهجرة، وكان أبو عبيدة بن الجراح قد خرج سلفًا وخالد بن الوليد على رأس جيش فسارا ومن معهما ميممين شطر حمص، وانضم إليهما من كانوا باليرموك بعد انتصارهم على الروم، فنزلوا جميعًا على «ذى الكلاع»، فبعث هرقل «توذر البطريق» لمقاتلتهم، حتى نزل بمرج الروم غرب دمشق، فسار إليهم أبو عبيدة إلى «المرج»، وكان هرقل قد أرسل «شنس» الرومى على رأس قوة مددًا لقائده «توذر» وردءًا لأهل حمص.

وأقام المدد بقيادة «شنس» على جنب من عسكر بهم «توذر»، فكان خالد بن الوليد بإزاء «توذر»، وأبو عبيدة بإزاء «شنس».. وأراد توذر أن يغتنم الفرصة فيكر على دمشق انتهازًا لخروج المقاتلين منها، فاتّبعه خالد من ليلته فى جريدة، بينما كان الخبر قد تناهى إلى يزيد بن أبى سفيان الذى استخلفه أبو عبيدة على

دمشق، فخرج إليه يزيد واستقبله بحامية المدينة فاقتتلوا، ولحق بهم خالد، فأخذ الروم من خلفهم، وانحصر الروم من الأمام والخلف، فانهزموا وقتل قائدهم «توذر». ولم يفلت منهم إلّا الشريد!

وبينما كان هذا القتال دائرًا على الطريق إلى دمشق، كان أبو عبيدة بن الجراح قد اشتبك فى «مرج الروم» مع الأمداد التى جاءت بقيادة «شنس»، وانتصر عليهم، فقتلت الروم فى هذا اليوم مقتلة عظيمة، وقتل «شنس»، وتبع المسلمون فلولهم إلى حمص، حيث كانت مقصد أبى عبيدة.

فتح حمص وبعلبك

سار أبو عبيدة فى مطاردته لفلول الروم إلى حمص، وكانت وجهته أصلًا، وفى الطريق إليها حاصر «بعلبك»، فطلب أهلها الأمان فأمنهم وصالحهم، ولحق به إلى حمص خالد بن الوليد بمن معه، فاجتمعا على مشارف المدينة، وكان هرقل وقد أدرك خطة المسلمين، قد أرسل إلى أهل حمص يعدهم المدد، وأمر الروم والمستعربة من أهل الجزيرة بالتجهز إلى حمص، فساروا نحو الشام ليمنعوا حمص عن المسلمين، فَسَيَّر سعد بن أبى وقاص سرايا من العراق لصدهم، فتفرق أهل الجزيرة وعدلوا عن نجدة أهل حمص.

أقام أبو عبيدة على حصار المدينة، وكان هرقل قد أرسل إلى أميره على حمص بألا يقاتلوا المسلمين إلّا فى كل يوم بارد، وكان الوقت شتاء، لأن العرب لا يطيقون البرد، ويقول القائل من أهل المدينة إن العرب حفاة، فإذا أصابهم البرد تقطعت أقدامهم، فجعل الروم يفادون المسلمين ويراوحونهم فى كل يوم بارد، ولقى المسلمون بردًا شديدًا، ولاقى الروم حصارًا طويلاً، فلما انصرم الشتاء، والمسلمون على حصارهم للمدينة لا يريمون، قام شيخ من الروم فدعاهم إلى مصالحة المسلمين فلم يجيبوه، وقالوا: «كيف والملك (هرقل) فى سلطانه وعزه؟! ليس بيننا وبينهم شىء!». وقام فيهم آخر فقال لهم: «ذهب الشتاء وانقطع الرجاء،

فما تنتظرون؟». فأجابوه بأن «اليرسام»[1] يسكن فى الشتاء ويظهر فى الصيف، فقال لهم: «إن هؤلاء قوم يعانون، ولأنْ تأتوهم بعهد وميثاق، خير من أن تُؤخذوا عنْوة؛ أجيبونى محمودين قبل أن تجيبونى مذمومين! فقالوا: شيخ خرف، ولا علم له بالحرب».

صابر المسلمون ورابطوا، بينما تعرضت المدينة لزلزال هدم الدور، وتزامن وقوعه فيما يبدو بتكبيرات وهجوم المسلمين، فتنادى الروم وأهل حمص طالبين الصلح، فصالحهم أبو عبيدة على صلح دمشق، وصالح بعضهم ـ فيما يروى الطبرى ـ على قدر طاقته[2].

وبعث أبو عبيدة السَّمْطَ بن الأسود فى بنى معاوية، والأشعث بن مئناس فى السّكون، والمقداد بن عمرو فى بَلِيّ، وبعث بغيرهم لتوطئة الأمور فيما حول حمص.

إلى حماة وشيزر

استخلف أبو عبيدة على حمص عُبَادة بن الصامت، وسار هو إلى «حماة»، فتلقاه أهلها مذعنين بعد أن سبق إليهم صيت المسلمين، فصالحهم أبو عبيدة على الجزية، والخراج عن أرضهم، ومضى نحو «شيزَر»، وكتب أبو عبيدة كتابًا يدعوهم إلى الصلح، فأجابوه وعقدوا معه الصلح على صلح حماة، وبشرهم بأنه لا يكره أحدًا منهم على الدخول فى الإسلام، فإن دخله مختارًا فله ما للمسلمين وعليه ما عليهم، وأن خراج الأرض موضوع عنهم سنتين، ومن أقام على دينه فليس عليه إلّا الجزية ـ أما خراج الأرض فموضوع عنه سنة كاملة.

وسار أبو عبيدة إلى «معرة النعمان»، وكانت تعرف «بمعرة حمص»، ونسبت بعد ذلك إلى النعمان بن بشير الأنصارى، فصالحوه على مثل صلح أهل حمص.

---

(١) ذات الجَنْب، وهو التهاب فى الغشاء المحيط بالرئة.

(٢) تاريخ الطبرى ٣/٦٠٠.

تابع أبو عبيدة مسيرته المظفرة إلى «اللاذقية»، فقاتله أهلها، وكان للمدينة باب عظيم لا يستطيع أن يفتحه إلّا جمع من الناس، فعسكر أبو عبيدة بالمسلمين على بُعْدٍ منها، ثم أمر بحفر عدة حفر عظيمة، تستر الواحدة منها الفارس راكبًا، ثم أظهر لأهل اللاذقية أنه عائد بالمسلمين، ورحل بالفعل بهم، ولكنه عندما أجنَّهم الليل، عاد بهم إلى حيث استتروا بداخل الحفر التى حفروها.. وانطلت الحيلة على ساكنى المدينة، فلما أصبح الصبح، أخرجوا سرحهم ورعيهم، وانتشروا بظاهر البلد، فلم يُرعْهُم إلّا والمسلمون يصيحون بهم وقد دخلوا المدينة معهم، وتم الاستيلاء على المدينة عنوة، وهرب بعض القوم ثم ما لبثوا أن عادوا طالبين الأمان على أن يرجعوا إلى أرضهم، فقبل منهم أبو عبيدة على خراج يؤدونه عن الأرض قلوا أو كثروا، وتُركت للنصارى كنيستهم، بينما جلا أهل جبلة من الروم عنها.

وانتدب أبو عبيدة عبادة بن الصامت إلى «انطرطوس»، وكان حصنًا فجلا عنه أهله، وكذلك فعل «ببانياس»، وفتح بعدها «سَلْمية»، وقيل تدعى «المؤتفكة»، انقلبت بأهلها ، ولم يَسْلم منها ـ أى لم ينج منها ـ غير مائة نفس، فبنوا لأنفسهم مائة منزل، فسميت «سل مائة»، ثم حرفها الناس فقالوا: «سَلْمية»، وقد مصرها بعد ذلك صالح بن على بن عبد الله بن عباس.

فتح قنسرين

نقل الرواة، أن أبا عبيدة بن الجراح، بعث خالد بن الوليد بعد فتح حمص إلى «قنّسرين»، فلما زحف ونزل «الحاضر»، زحف إليه الروم، وعليهم «ميناس»، وكان أعظمهم بعد هرقل، فالتقى الطرفان بالحاضر، وانهزْم الروم هزيمة ساحقة وقتل قائدهم «ميناس» ومن معه، ولم يبق من جند الروم أحد. أما أهل «الحاضر» فأرسلوا إلى خالد أنهم عرب، وأنهم إنما حشروا فى الأمر ولم يكن من رأيهم حربه، فقبل منهم خالد وتركهم.

وقيل إنه لما بلغ عمر بن الخطاب ذلك قال: «أَمَّرَ خالد نفسه يرحم الله أبا بكر؛ هو كان أعلم بالرجال منى». وقَفَّى قائلا عن عزله ثم المثنى بن حارثة الشيبانى: «إنى لم أعزلهما عن ريبة؛ ولكن الناس عظموهما، فخشيت أن يوكلوا إليهما!».

سار خالد بن الوليد حتى نزل «قنّسرين»، فتحصن الروم بها، فقال خالد: «إنكم لو كنتم فى السحاب لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم الله إلينا». وجعل الرومان يطاولونه ويقاتلونه حتى أبرموه وهم محتمون بالحصون، فلما طال القتال، وأيقن الروم أنه لا فرصة لهم، طلبوا الصلح على صلح حمص، ولكن خالد أبى أن يصالحهم إلّا على تخريب ودك حصون المدينة، وقد كان.

ويبدو أن هذه الضربة الخالدية، كانت للروم بمثابة القشة التى قصمت ظهر البعير، وصاحبها توغل خالد وعياض إلى هرقل من الشام، وأوغل غيرهما فى الشام من ناحية الكوفة والموصل، ففتّ ذلك فى عضد هرقل، وزعم الرواة أنه حين فتح حمص، سار هرقل فنزل «الرّهاء»، فلم يزل بها حتى فُتحت قنّسرين وقتل ميناس، وتوغل بعض المسلمين إلى الشام من الكوفة، فانتقل إلى «شمشاط» أو «سميساط»، ومنها إلى «القسطنطينية»، وقيل إنه حينما علا فى طريقه وقف فوق جبل، والتفت إلى الشام فقال: «سلام عليك يا سورية، سلامًا لا اجتماع بعده، ولا يعود إليك رومىّ إلا خائفًا، حتى يولد الولد المشئوم، وليته لا يولد! ما أحلى فعله، وأمر عاقبته على الروم!» ومضى حتى نزل القسطنطينية، وأخذ معه أهل الحصون التى بين «إسكندرونة» و«طرسوس»، مخافة أن يمضى المسلمون فى عمارة ما بين أنطاكية وبلاد الروم.

فتح حلب وأنطاكية

اضطربت روايات المؤرخين، اضطرابًا شديدًا، فى سرد فتح حلب وقلاعها وما حولها، وما تبعها من فتح أنطاكية.. فلم يورها الطبرى فى تاريخه، ويكاد

يتفق النويرى فى نهاية الأرب، مع ابن الأثير فى تاريخه، فى سرد الأحداث، ولكن يختلف عنهما الواقدى فى فتوح الشام اختلافًا كبيرًا لا ترفعه رواية ابن كثير فى البداية والنهاية، وليس ميسورًا الترجيح الدقيق بين الروايات.

والذى نخرج به إجمالاً من هذه الروايات، أن أبا عبيدة بن الجراح سار بعد فتح قنسرين إلى «حلب»، وإنه لفى طريقه بلغه أن بعضًا من أهالى قنّسرين نقضوا وغدروا، فوجه إليهم السِّمْط الكِندى، وتابع مسيره إلى أن وصل إلى حاضر حلب، وهو قريب منها، ويجمع أصنافًا من العرب، فصالحهم على الجزية، ثم أسلموا بعد ذلك.

وسار أبو عبيدة إلى حلب، وعلى مقدمته عياض بن غنم، فتحصن أهلها، وحصرهم المسلمون، فلم يلبثوا أن طلبوا الصلح والأمان على أنفسهم ومدينتهم وحصنهم وكنائسهم، فأعطوا ذلك، واستثنى عليهم موضعًا استبقاه المسلمون لإقامة مسجد، ويقال إن عياض بن غنم هو الذى صالح، وإن أبا عبيدة أجازه.

هذه هى رواية ابن الأثير فى تاريخه، وتتفق معها رواية النويرى الذى نقل عنه فى نهاية الأرب، بيد أن الواقدى يسوق فى فتوح الشام قصة طويلة، خلاصتها أن أهل حلب اضطربوا اضطرابًا شديدًا حين علموا بفتح قنّسرين ومسير المسلمين إليهم، وكان على قلعة حلب أخان شقيقان: يوقنا ويوحنا، وأن الأخير وهو الأصغر سنًا، نصح أخاه الأكبر يوقنا فى حوار طويل بأن يسعى للصلح، فضاق به أخوه يوقنا، وعنفه تعنيفًا شديدًا، وعزم على قتال أبى عبيدة قبل أن يصل إليه، وأقام له كمينًا لاعتراضه فى الطريق، بينما كان أبو عبيدة قد بعث كعب بن ضمرة فى ألف فارس، وكان بطلاً مجربًا شديد البأس، طليعة بمن معه إلى حلب، وأخبره بأنه لاحق به من ورائه، ولكن كعبًا صادفه الكمين الذى كان «يوقنا» قد أعده فى طريق المسلمين، فاشتبك مع الكمين، ودار بينهما قتال مرير، وأصيب فيه من المسلمين مائة وسبعون رجلاً، ولكن عسكر يوقنا عاينوا من ثبات المسلمين وبلائهم ما أذهلهم، وأطار لبهم أنهم نالوا منهم وأصابوا فيهم رغم قتلهم

أكثر مما أصابوه هم من المسلمين. فجعل يوقنا يلومهم ويشجعهم ويقول إن العرب كالذئاب إن صدمت ولت، وطال القتال حتى نال الإرهاق والإجهاد من المسلمين وهم يقاتلون أكثر منهم عددًا وعدة، بينما تأخر لحاق أبى عبيدة بهم.

وذكر الواقدى أن مرجع تأخير أبى عبيدة عن اللحاق بطليعته، أن أهالى حلب لجأوا إليه طالبين الصلح، فحاجاهم أبو عبيدة بأن ذلك لا يستقيم مع ما نمى إليه من أن بطريقهم يصمم على قتال المسلمين، وحَصَّن لذلك قلعته بالمؤن والجنود. فأجابوا بأن ذمتهم بريئة مما يفعله البطريق، وبريئة من خروجه ونصبه كمينًا للقتال، فشق سماع ذلك على أبى عبيدة، وأبى عليهم الصلح وإن صدقوا فيما صرحوا به. بيد أن الأهالى طفقوا يلحون فى طلب الصلح، ويمنون أبا عبيدة بأنهم سيكونون عونًا للمسلمين فى تعمير الأراضى، وبأنه ليس فى صالح المسلمين أن يشيع فى الشام أنهم لا يقبلون الصلح فلا يبقى حولهم أحد، ويمعن الناس فى قتالهم. فلما نقل الترجمان إلى أبى عبيدة ما يقولونه، أطرق يفكر، بينما برز أحد حكمائهم، وكان فصيح اللسان يعرف العربية، فطفق يردد ما أنزله الله على أنبيائه وأسكنه من رحمة فى قلوب المؤمنين وما دعا إليه من العفو وإغاثة الملهوف، وما وعَدَ به على ذلك من أجر وبركة ومثوبة. وذكر الواقدى أن أبا عبيدة رضى الله عنه بكى مما سمعه، وجعل يقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة البقرة: ١٩٥].. وتحدث بأن الإسلام أولى بذلك، ودعا إليه الرؤساء من المهاجرين والأنصار، وعرض عليهم الأمر، وطفق يقنع بالصلح من تشككوا فى نوايا القوم، ويقول لهم: «أحسن ظنك بالله وثق بالله فإن الله ينصرنا ولا يسلط علينا عدونا، فرحم الله من قال خيرًا أو صمت». ونجح أبو عبيدة فى إقناع أصحابه بالصلح، وترفق بالأهالى بعد ما لمس من صدقهم، ولان لهم فى الصلح، وأبرمه معهم على ما يحبون ويحفظ احترام العهد الذى قطعوه على أنفسهم.

وفى الصباح، ارتحل أبو عبيدة وعلى مقدمته خالد بن الوليد، إلى حلب، حيث التأم الجيش بطليعته، ودان النصر للمسلمين بعد نزال طويل.

ويتفق معظم الرواة، على أنه تزامن مع فتح حلب فتح أنطاكية، وأنه تزامن معها أيضًا توطئة المنطقة، بفتح قلاع وحصون وقرى، ولكنهم يختلفون فى ترتيب الوقائع وفى التفاصيل، واتفقوا على أن «أنطاكية» فتحت صلحًا بعد أن تحصن بها كثير من الناس، فلما هزمهم أبو عبيدة وحاصرها من جميع نواحيها، صالحوه على الجلاء أو الجزية، فجلا بعض وأقام بعض فأمنهم، ثم نقضوا العهد فوجه إليهم عياض بن غَنْم وحبيب بن مسلمة، ففتحاها على الصلح الأول.

وبلغ أبا عبيدة أن جمعًا من الروم قد احتشد له بين «معرة مَصْرين» و «حلب»، فسار إليهم فهزمهم، ثم صالحهم على صلح حلب، ثم جالت خيوله، فبلغت «يوقة»، وفتحت لها بعض القرى مثل «الجومة» و «سَرْمين» و«تِبرين»، وغلبوا على جميع الأراضى بين قنّسرين وأنطاكية، وفتحوا حصنًا فى «قورس» يعرف بحصن سليمان، ثم سار أبو عبيدة إلى «مَنْبج» وعلى مقدمته عياض بن غنم، وصالح أهلها على صلح أنطاكية، ثم سَيّر عياضًا إلى ناحية «دلوك» و«رَعْبان» فصالح أهلها على مثل صلح «مَنْبج» و«أنطاكية».

ويقال إن أبا عبيدة ولّى عاملاً على كل كورة فتحها، وسار إلى «بالس»، وبعث جيشًا مع حبيب بن مسلمة إلى «قاصرين» فصالحه أهلها على الجزية أو الجلاء، وجلا أكثرهم إلى بلاد الروم وأرض الجزيرة، ودانت للمسلمين المنطقة من هذه الناحية إلى نهر الفرات.

وسير أبو عبيدة جيشًا مع مَيْسَرة بن مسروق العبسى، فسلكوا درب «بغراس» من أعمال أنطاكية إلى بلاد الروم، ولقوا جمعًا من الروم ومعهم عرب من غسان وتنوخ وإياد يريدون اللحاق بالروم فأوقعوا بهم، وأنزلوا بهم هزيمة فادحة.

وسير أبو عبيدة جيشًا مع خالد بن الوليد إلى «مرعش»، ففتحها بالأمان على جلاء من يريد من أهلها. وسير جيشًا آخر مع حبيب بن مسلمة إلى حصن «الحدث»، ويقال سمى بذلك لأن المسلمين لقوا عليه غلامًا حدثًا فقاتلهم فى أصحابه فقيل: درب الحدث، وقيل بل لأن المسلمين أصيبوا به فسمى بذلك، وسماه الأمويون بعد ذلك درب السلامة.

وتسامع الناس بانتصارات المسلمين، فبثت لهم الهيبة، وتسامعوا باستعدادهم للصلح والمسالمة، فأقبلوا عليهم، وذاعت هوادة ومناقب أبى عبيدة، فوطأت له الأكناف واطمأن إليه كثير من الناس.

ما بين قيسارية وبيسان وموقعة أجنادين

قال الرواة إنه لما انصرف أبو عبيدة وخالد من فحل إلى حمص، نزل عمرو ابن العاص وشرحبيل بن حسنة «بَيْسان» فافتتحاها، وصالحته الأردن، واجتمع عسكر الروم فى «أجنادين» و«غزة» و«قيسارية»، فانتدب معاوية بن أبى سفيان إلى «قيسارية»، وكانت أول قيادة له، وانتدب عمرو بن العاص لصدم «الأرطبون» وإيقافه، وخرج عمرو بن العاص ومعه شرحبيل بن حسنة على مقدمته، وولى عمرو على مجنبتيه ابنه عبد الله بن عمرو بن العاص وجنادة بن تميم المالكى؛ مالك بنى كنانة.. فساروا حتى نزلوا على الروم «بأجنادين»، وقد تترس الروم فى حصونهم وخنادقهم وعليهم «الأرطبون».

ويقال إن الأرطبون كان من أدهى الروم وأعمقهم غَوْرًا، وأنكاهم فعلاً، وأنه كان قد حشد«بالرملة» جندًا عظيمًا، وبإيلياء وهى بيت المقدس، جندًا عظيمًا.

وكانت خطة المسلمين تفريق الروم، فانشغل فريق منهم بأمر «قيسارية» التى بعث عليها معاوية، وبعث عمرو بن العاص بقوة إلى «إيلياء» وبأخرى إلى «الرملة» فشغلوهم عن عمرو الذى أقام على «أجنادين» إزاء «الأرطبون»، لا ينال أحدهما من الآخر.

هنالك احتال عمرو بن العاص ليتعرف على معسكر الأرطبون وحصونه، فاحتال إلى عسكره بدعوى أنه رسول موفد من عمرو إلى الأرطبون، إلَّا أن الأرطبون تنبه إلى أن فطنة الرسول، تورى بأنه إما أن يكون عمرًا نفسه، أو أحد كبار قادته، وأن قتله سيصيب المسلمين برزء، فسرب إلى بعض حرسه أن يتربصوا به فى طريق عودته ليقتلوه.

ويقول الرواة إن عمرًا فطن للمكيدة، فاحتال للخروج منها، فطفق يقول للأرطبون بواسطة الترجمان: «قد سمعت منى وسمعت منك، فأما ما قلته فقد وقع منى موقعًا؛ وأنا واحد من عشرة؛ بعثنا عمر بن الخطاب مع هذا الوالى لنكانفه (لنعاونه) ويشهدنا أموره، فأرجع فآتيك بهم الآن، فإنْ رأوا الذى عرضت مثل الذى أرى، فقد رآه أهل العسكر والأمير، وإنْ لم يروْه رددتهم إلى مأمنهم، وكنت على رأس أمرك».

ويقال إن حيلة عمرو انطلت على الأرطبون، فسرب رجلاً إلى حرسه ليكفوا عن قتله فى طريق عودته، فانطلق عمرو إلى معسكره وهو لا يصدق أنه قد نجا، بينما أدرك الأرطبون لاحقًا ما انطلى عليه فقال عن عمرو: «هذا أدهى الخلق»، ويقال إنه حينما بلغت هذه القالة عمر بن الخطاب، جعل يقول: «غلبه عمرو، لله عمرو!»، وكان رضى الله عنه قد قال: «قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب».

ويقول الرواة إن الطرفين قد التقيا فى معركة كبيرة فى أجنادين، واقتتلوا قتالاً شديدًا قيل إنه كقتال اليرموك، حتى كثر القتلى بين الطرفين، وانهزم الأرطبون فأوى بمن أفلت معه إلى «إيلياء»، ونزل عمرو على أجنادين، ويزعم الرواة أن الأرطبون من غيظه من عمرو كتب إليه: «إنك نظيرى؛ أنت فى قومك مثلى فى قومى؛ والله لا نفتتح من فلسطين شيئًا بعد أجنادين، فارجع ولا تغتر فتلقى ما لقى الذين قبلك من الهزيمة»، ويقال إن عمرًا رد عليه بكتاب بعثه إليه مع رجل يتكلم بالرومية، ثم إنه كتب إلى عمر بن الخطاب يستمده لأنه «يعالج حربًا كئودًا صدومًا، وبلادًا قد ادُّخرت لك، فرأيك»، فنادى عمر فى الناس ليمد المسلمين وقد جاءت الأنباء أيضًا بأنهم على مشارف بيت المقدس.

تحرير بيت المقدس

كان لبيت المقدس مكانة أثيرة لدى المسلمين، ففيها أولى القبلتين، المسجد الأقصى، وبداية معراج رسول الله ﷺ إلى السماوات العلى.. وكان أغلب قاطنيها

من العرب، وضاق مسيحيوها بجيرة اليهود فيها من ناحية، وبعسف الروم المحتلين للمدينة المقدسة من ناحية أخرى..

وكانت بداية تحرير بيت المقدس من الروم فى أواخر سنة ١٥هـ، وربما تم ذلك فى ربيع الآخر سنة ١٦هـ. فقد أوردها الطبرى فى تاريخه ضمن أحداث السنة الخامسة عشرة للهجرة[١]، وأورد بعدها أن صلحًا تم على يدى عمر بن الخطاب فى ربيع الآخر سنة ١٦هـ.

وذكر الواقدى صاحب فتوح الشام ـ ذكر ما موجزه، أنه حين أتى أبا عبيدة وهو فى «الجابية» ـ كتاب عمر بن الخطاب يأذن له فى المسير إلى بيت المقدس، دفعه إلى المسلمين ففرحوا بمسيرهم إلى بيت المقدس، حيث أولى القبلتين، ومعراج رسول الله ﷺ، ومثوى الأنبياء[٢]..

دعا أبو عبيدة إليه القادة، فعقد راية لخالد بن الوليد وضم إليه خمسة آلاف فارس، ثم دعا بيزيد بن أبى سفيان وعقد له راية وضم إليه خمسة آلاف وأمره أن يلحق بخالد إلى بيت المقدس، وقال له موصيًا: إذا قدمتم على بلد إيلياء فارفعوا أصواتكم بالتهليل والتكبير واسألوا الله بجاه نبيه ومن سكنها من الأنبياء والصالحين أن يسهل فتحها على أيدى المسلمين، ثم دعا أبو عبيدة بشرحبيل بن حسنة كاتب وحى النبى ﷺ فعقد له راية وضم إليه خمسة آلاف فارس من أهل اليمن، وأمره ألا يختلط حين يصل إلى بيت المقدس بعسكر من وصلوا قبله، ثم دعا أبو عبيدة بالمرقال بن هاشم بن عتبة بن أبى وقاص وعقد له راية فى خمسة آلاف فارس وأوصاه أن ينزل على حصل المدينة ويبقى منعزلاً عن أصحابه، ثم عقد راية خامسة للمسيب بن نجية الفزارى فى خمسة آلاف فارس، وعقد راية سادسة سلمها إلى قيس بن هبيرة المرادى وضم إليه خمسة آلاف فارس وسيره وراء المسيب، ثم عقد راية سابعة وسلمها إلى عروة بن مهلهل

(١) تاريخ الطبرى ٣ /٦٠٧.

(٢) فتوح الشام. الواقدى ط دار صادر ببيروت ١٩٧/١ وما بعدها.

ابن يزيد الخيل وضم إليه خمسة آلاف فارس وسيره وراءهم، فكان جملتهم إلى بيت المقدس خمسة وثلاثين ألفًا.

وكان أول الأمراء السبعة وصولاً خالد بن الوليد، فلما أشرف على بيت المقدس كبر وكبر أصحابه، وظن أهالى المدينة أن هذا هو كل عدة المسلمين، فاستصغروا شأنهم، ولكن توالى وصول الأمراء تباعًا فعلموا حجم المسلمين الحقيقى، وقيل إن أبا عبيدة لحق بخالد فكانا معًا فى قوة واحدة.

ومضت الأيام بين منازلات بسيطة، وحوار عبر الأسوار عدة أيام، وقيل إن كبير الأساقفة، وهو الأسقف صفرونيوس بطريرك بيت المقدس فى أرجح الروايات، خرج فى ثلة من الأساقفة والرهبان، فحاور أبا عبيدة حوارًا طويلاً أكد فيه ما خلاصته أن المدينة لن تفتح إلا للرجل الأسمر الأحور المسمى بعمر صاحب نبيهم محمد، وفرح المسلمون بما آل إليه الحوار، وأرسل أبو عبيدة بن الجراح يطلب إلى عمر بن الخطاب القدوم لعقد صلح بيت المقدس الذى طلب بطريرك المدينة الأعظم ألا يجرى إلا على يديه.

ويقال إن عمر قرأ الكتاب على المسلمين بالمسجد بالمدينة، فاستبشروا به، وسألهم الرأى، فأشار عثمان بن عفان أن يقيم ولا يذهب، وقال له: «أقم يا أمير المؤمنين ولا تبرح مدينتك، فأنت إن أقمت ولم تسر إليهم رأوا أنك بالأمر مُستخف، ولقتالهم مستعد.. فيبادروا إلى التسليم»، بينما أشار على بن أبى طالب «بأن القوم سألوه سؤالاً فيه فتح للمسلمين، وقد أصاب المسلمين جهد عظيم من البرد والقتال وطول المقام، وأن فى مسيره إليه وفتح المدينة على يديه أجرًا عظيمًا، وفيه الأمن والعافية والصلاح له وللمسلمين».. وأضاف على: «ولست آمن إن يئسوا من قبولك الصلح معهم أن يتمسكوا بحصنهم حتى يأتيهم مدد من الروم، فيطول الحصار، ويصيب المسلمين الجهد والجوع».

استحسن عمر رأى على بن أبى طالب، وقال لصاحبيه: «لقد أحسن عثمان النظر فى المكيدة، وأحسنت يا أبا الحسن النظر لأهل الإسلام، وإنى بإذن الله سائر إليهم».

استخلف الفاروق على بن أبى طالب على المدينة، وشد الرحال إلى «الجابية» واستقبله بالجابية، حيث جرى الصلح، أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد وباقى الأمراء، وانضم إليهم بالجابية عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة، فكتب كتابًا لأهل إيلياء، وكتبًا أخرى متماثلة لباقى الكور، وجاء فى الكتاب الذى عقده لأهل بيت المقدس:

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان؛ أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملّتها؛ أنه لا تسكن كنائسهم ولا تُهدم، ولا يُنتقص منها ولا من حيّزها، ولا من صليبهم، ولا من شىء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم، ولا يضارّ أحد منهم، ولا يسكنُ بإيلياء معهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يعطُوا الجزية كما يُعطِى أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الرّوم واللصوت (اللص، السارق)؛ فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم؛ ومّن أحبّ من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الرّوم ويخلّى بيَعهم وصُلُبهم فإنّهم آمنون على أنفسهم وعلى بيَعهم وصلبهم، حتى يبلغوا مأمنهم، ومَن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان، فمن شاء منهم قعدوا عليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزِيْة، ومن شاء سار مع الروم؛ ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شىء حتى يُحصد حصادهم؛ وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية. شهد على ذلك خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبد الرحمن ابن عوف، ومعاوية بن أبى سفيان. وكتب وحضَر سنة خمس عشرة».

أما سائر الكتب لباقى الكور، فجاء بها:

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل لُدّ ومن دخل معهم من أهل فلسطين أجمعين، أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلُبهم وسقيمهم وبريئهم وسائر ملّتهم؛ أنه لا تُسْكن كنائسهم

ولا تُهدم ولا ينتقصُ منها ولا من حيّزها ولا مِلِها، ولا من صُلُبهم ولا من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم؛ ولا يضارّ أحد منهم؛ وعلى أهل لُدّ ومن دخل معهم من أهل فلسطين أن يُعطوا الجزية كما يعطى أهلُ مدائن الشام، وعليهم إن خرجوا مثلُ ذلك الشرط إلى آخره.

ثم إن عمر سرح إليهم، وفرق فلسطين على رجلين، فجعل علقمة بن حكيم على نصفها وأنزله الرملة، وعلقمة بن مُجزّز على نصفها وأنزله إيلياء؛ فنزل كلّ واحد منهما فى عمله فى الجنود التى معه.

ونقل الطبرى عن سالم، قال: استعمل علقمة بن مجزّز على إيلياء وعلقمة ابن حكيم على الرّملة فى الجنود التى كانت مع عمرو وضمّ عمرًا وشُرَحبيل إليه بالجابية، فلما انتهيا إلى الجابية، رافقا عمر رحمه الله راكبًا، فقبلا ركبتيه، وضم عمر كل واحد منهما محتضنهما»[1].

ويقول الرواة إن الأرطبون لحق بمصر لدى مقدم عمر الجابية، ولحق به من أحب ممن أبى الصلح.

ونقل الرواة بعض طرائف زهد وتواضع أبى عبيدة، التى تبدت فى زيارة عمر ابن الخطاب للشام، فأخرج الحاكم (٦١/١) بسنده، أن عمر بن الخطاب أتى ومعه أبو عبيدة بن الجراح الذى خرج مع الأمراء لاستقباله، فأتوا على مخاضة وعمر على ناقة له فنزل عنها وخلع خفيه فوضعهما على عاتقه وأخذ بزمام ناقته فخاض بها المخاضة، فقال له أبو عبيدة: «يا أمير المؤمنين! أأنت تفعل هذا؟! تخلع خفيك وتأخذهما على عاتقك وتأخذ بزمام ناقتك وتخوض بها المخاضة؟! ما يسرنى أن أهل البلدة استشرفوك!» فقال له عمر: «لو يقل هذا غيرك يا أبا عبيدة؟! جعلته نكالاً لأمة محمد ﷺ.. إنا كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام فمهما نطلب العز بغير ما أعزنا الله به ـ أذلنا الله».

---

(١) تاريخ الطبرى ٦٠٩/٣ ، ٦١٠.

وأخرج الحاكم أيضًا (٦٢/١) أنه لما قدم عمر رضى الله عنه الشام، لقيه الجنود وعليه إزار وخفان وعمامة، وهو آخذ برأس بعيره يخوض الماء، فقال قائل له: «يا أمير المؤمنين! تلقاك الجنود وبطارقة الشام وأنت على حالك هذه!» فقال عمر: «إنا قوم أعزنا الله بالإسلام فلن نبتغى العز بغيره».

وقيل إن عمر بن الخطاب طلب يومها إلى أبى عبيدة أن يأخذه إلى منزله بالجابية، فقال له أبو عبيدة: «وما تصنع؟! أتريد أن تعصر عينيك علىّ. فلما دخل عمر إلى داره، نظر حوله فألفاه خاليًا أو يكاد ، فلم ير إلّا سيفه وترسه ورحله»، فقال لأبى عبيدة: «أين متاعك؟! ما أرى إلّا لبدًا وصحفة وشناء وأنت أمير!. فلما مضى بهما الوقت، سأل عمر عن الطعام، فقام أبو عبيدة إلى جونة فى ركن الدار، فأخذ منها كسيرات. وقيل إن عمر بكى لحظتها»، وقال لأبى عبيدة: «ألا اتخذت ما اتخذ أصحابك؟!» فأجابه أبو عبيدة «يا أمير المؤمنين هذا يبلغنى المقيل»، فقال عمر: «كلنا غيرتنا الدنيا غيرك يا أبا عبيدة».

صد الروم عن حمص

اتفق الرواة، على أن الروم قصدوا فى السنة السابعة عشرة للهجرة إلى أبى عبيدة فى حمص، وكانوا قد استجابوا إلى أهل الجزيرة الذين استنفروهم واجتمع هؤلاء وأولاء يريدون أبا عبيدة والمسلمين فى حمص، فضم أبو عبيدة إليه «مسالمة»[1]، وعسكر بهم بفناء مدينة حمص، وأقبل إليه خالد بن الوليد من قنّسرين فانضم إليه فيمن انضموا من أمراء «المسالم»، فشاورهم أبو عبيدة فى المناجزة أو التحصن إلى مجىء الغياث، فرأى خالد المناجزة، وأشار الآخرون بالتحصن والانتظار.. فأخذ أبو عبيدة برأيهم، وكتب إلى عمر يخبره، فأرسل عمر إلى سعد بن أبى وقاص بالكوفة أن يندب إليه مددًا ممن كان يجمعهم عمر فى كل مصر عدة لقوة «احتياطية» للدفع بها فى أى موضع يتعرض فيه المسلمون، وأمره عمر بأن

(١) جمع مَسْلحة وهى موضع وقوف الجند بالسلاح للمراقبة.

يندب الناس مع القعقاع بن عمرو لنجدة أبى عبيدة الذى أحيط به فى حمص، وبأن يخرجوا إليه يوم يأتيهم كتابه، ففعل.

وكتب عمر إليه أيضًا، أن يستنهض سُهَيْل بن عدى فى الجند إلى «الرّقة» بالجزيرة، فإن أهل الجزيرة هم الذين استثاروا الروم على أهل حمص، وبأن يستنهض عبد الله بن عبد الله بن عتبان إلى «نصيبين»، والوليد بن عقبة على عرب الجزيرة، وبأن يقصدوا حَران والرُّهاء، ويوافوا أبا عبيدة، فخرج القعقاع بن عمرو فى أربعة آلاف من اليوم الذى أتى فيه كِتاب عمر، وخرج غيره وأمراء الجزيرة، فلما رأى أهل الجزيرة مقدم هؤلاء وعرفوا أن وجهتهم حمص، خلّوا الروم، وانفضوا عنهم، فلما لمس أبو عبيدة انفضاض أهل الجزيرة عن الروم، استشار خالد بن الوليد فأشار عليه بالخروج إلى الروم، وخرجا معًا فيمن معهما من الجند، ففتح الله عليهما قبل ثلاثة أيام من وصول الإمداد من الكوفة، فأشركهم أبو عبيدة ـ برأى عمر ـ فى الأنفال، فقد نفروا إليهم، وبفضلهم تفرق عنهم عدوهم.

فتح الجزيرة وأرمينية

اختلف الرواة فى تاريخ فتحها، وأرجح الروايات أنها افتتحت سنة ١٧هـ، واختلفوا أيضًا هل هى من فتوح أهل العراق أم من فتوح أهل الشام، والواقع أنها فتوح أهل العراق وأهل الشام.

ذلك أن من خرجوا من الكوفة لنجدة أبى عبيدة والمسلمين فى حمص، وعليهم من تقدمت الإشارة إليهم من الأمراء، قد خاضوا أرض الجزيرة بعضهم بقيادة سهيل بن عدى على «الرّقة» ولما قدم الوليد بن عقبة إلى عرب الجزيرة من ربيعة وتنوخ، انضم إليه أهلها إلّا إياد بن نزار، وقيل إن هؤلاء الأمراء انضموا بمن معهم إلى عياض بن غنم، فسار بهم إلى «حَران»، فأجابه أهلها إلى الصلح على الجزية، ثم إن عياضًا سَرَّح سُهَيْلاً وعبد الله إلى «الرّها»، فصالحهما أهلها، فكانت الجزيرة فيما نقل الرواة أسهل البلدان فتحًا.

ومن هذا الوجه، اعتبر فتحها من فتوح أهل العراق، وأما من قالوا إنها من فتوح الشام، فنظروا إلى أنها كانت تحت راية أبى عبيدة، وأن أبا عبيدة كان قد كتب إلى عمر بن الخطاب أن يضم إليه عياض بن غنْم ـ بعد أن أخذ خالد بن الوليد إلى المدينة ـ فاستجاب إليه أمير المؤمنين، وصرف عياضًا إليه، فكان أبو عبيدة هو الذى استنهضه لفتح الجزيرة، وذلك سنة ١٧ هـ، وتتابعت باقى فتوحاتها على يد عياض بعد وفاة أبى عبيدة الذى استخلفه رضى الله عنه قبل وفاته على هذه البقاع، وأقره عمر وكتب بولايته حمص وقنّسرين والجزيرة، فتابع ما بدأه تحت ولاية أمين الأمة أبى عبيدة بن الجراح.

أبو عبيدة
الرفيق الحليم
فى تنفيذ العزل الثانى لخالد بن الوليد

قد مَرّ بنا ما كان من موقف أبى عبيدة عندما أتاه البريد فى ذروة معركة اليرموك، بوفاة أبى بكر وولاية عمر وعزل خالد بن الوليد وتولية أبى عبيدة محله، وأورد الطبرى فى تاريخه (٤٣٤/٣) أن أول كتاب لعمر بن الخطاب بعد توليه كان بتولية أبى عبيدة وعزل خالد، ورأينا كيف كتم أبو عبيدة هذا الخبر طوال المعركة حتى لا يفت فى عضد خالد أو يكسر عليه حربه، أو يوهن عزم المسلمين الذين ينزلون خالد منزلةً تتفق مع بلائه العظيم، وتقدير الرسول ﷺ الذى أطلق عليه أنه سيف الله المسلول.

ورأينا أبا عبيدة يستمر فى كتمان الخبر فلا يخبر به خالدًا، حتى تم فتح دمشق وأبرم خالد صلحها وكُتب كتاب الصلح باسمه، ورأينا بما أجاب به خالدًا، حينما سأله لماذا لم يخبره وقد أتاه كتاب أمير المؤمنين، وتركه يصلى بالناس ويصلى هو وراءه بينما الإمارة له والسلطان سلطانه، فما أجابه إلاّ بأنه لم يشأ أن يكسر عليه حربه، فما الدنيا يريد، ولا للدنيا يسعى، وأنهم جميعًا فى الله إخوة.

ورأينا كيف استمر يقر لخالد بمكانته، ويشركه فى أمره، ويتعاون وإياه تعاونًا رائعًا كان الصالح العام هو قبلتهما فيه، ويشاوره فيما يعرض له، وكيف سعى للإصلاح بين خالد وعمر فينقل إلى عمر أنباء بلاء خالد وانتصاراته، ويحدثه بحسن كلامه عنه، ويطلب إلى عمر أن يرسل إلى خالد يشاوره أيسير بعد فتح دمشق إلى هرقل أم إلى بيت المقدس، ويمتص غضب عمر حين علم أن أبا عبيدة أبطأ فى إعلان إمارته وعزل خالد.

وفى هذه المواقف تتلاقى مناقب أبى عبيدة الشخصية، من رفق وإسماح وحلم وزهد وتواضع، ورجولة وشهامة ـ مع واجبات الإمارة التى اضطلع بأعبائها، وأوجبت عليه المحافظة على دور خالد، وعدم التفريط فيه على شجاعته وخبرته فى الحرب وصدق بلائه فيها.

العزل الثانى لخالد

ولم يكن غائبًا عن أبى عبيدة، أن لأمير المؤمنين عمر تحفظات على خالد لم يكن الفاروق يخفيها ولا يخفى رأيه فى عزله وتحدث بها فى خلافة أبى بكر، ثم نفذها فور ولايته، على أن خالدًا ظل بعد العزل الأول قائمًا على جنوده الذين ذهبوا معه من العراق إلى الشام، ومجاورًا لأبى عبيدة فى فتوحات دانت لهما وكان لخالد قصب السبق فى بعضها، فلم ينكر عليه أبو عبيدة فضله، وظل سيف الله محفوظ المكانة بين المسلمين الذين أعجبوا به وببلائه الذى كان يفت فى عضد الأعداء.

على أن أمير المؤمنين، ظل لا يرتاح إلى بعض الضربات الخالدية، وكان يقول سلفًا أيام أبى بكر إن سيف خالد فيه رهق، وأن فيه خيلاء، إلى جانب ما كان من سخطه على زواجه من ليلى امرأة مالك بن نويرة فى حرب المرتدين، ويلح على أبى بكر فى عزله، فلما استخلف عمر كان عزل خالد هو أول ما تكلم فيه حسبما قال الرواة، حتى قال: «لا يلى لى عملاً أبدًا».

على أن عمر لم يعزل خالدًا دفعة واحدة، فكان العزل الأول الذى مَرّ بنا عن الإمارة العامة للأجناد بالشام، ولم يتضمن عزله عمن كان يقودهم ممن أتوا بصحبته من العراق، ولا عزله عن مكانته أو صادر على بلائه، وقد مَرّ بنا أنه كان يشير على أبى عبيدة أن يشاوره، وأنه كان بين أسماء الشهود على صلح بيت المقدس الذى أبرمه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

وقيل إن عمر كان قد كتب إلى خالد أن يراجعه فى حساب المال وألاّ يعطى شاة أو بعيرًا إلاّ بأمره، فأحاله على ما جرى به العمل قبله. وكان قد أجاب أبا بكر بكلام مقتضب قال فيه: «إما أن تدعنى وعملى وإلاّ فشأنك بعملك» فلم يطقها عمر، وقال: «ما صدقت الله إنْ كنت أشرت على أبى بكر بأمر فلم أنفذه» وقال الرواة إنه نمى إلى الفاروق إن خالدًا وعياضًا بن غنم أغارا على بلاد الروم ورجعا بغنائم، وأن الأشعث بن قيس قصد خالدًا ومدحه فأجازه بعشرة آلاف درهم وأنه أجاز آخرين من ذوى البأس وذوى الشرف وذوى اللسان». فعظم هذا البذل على الفاروق، فكتب إلى أبى عبيدة «أن يقيم خالدًا ويعقله بعمامته وينزع عنه قلنسوته حتى يعلمهم من أين أجاز الأشعث، هل من مال الله أم من ماله أم من إصابة أصابها؟ فإن زعم أنه من إصابة أصابها فقد أقر بالخيانة، وإن زعم أنها من ماله فقد أسرف» وأمر أبا عبيدة أن يعزله على كل حال وأن يضم إليه عمله.

وكان خالد على «قنسرين» ، فكتب إليه أبو عبيدة فقدم عليه، ثم جمع الناس وجلس على المنبر ودعا بخالد فسأله: أمن ماله أجاز الأشعث أم من إصابة أصابها؟ فلم يجب وأبو عبيدة يعيد السؤال مرة بعد مرة. فوثب بلال بن رباح، فقال لخالد ما أمر به أمير المؤمنين. ثم تناول عمامته ونقضها وعقله بها وخالد لا يمنعه. وسأله: ما تقول؟ أمن مالك أم من إصابة؟ فقال خالد: لا، بل من مالى. فأطلقه بلال وعممه بيده وهو يقول: نسمع ونطيع لولاتنا ونفخم ونخدم موالينا. ثم قوسم مال خالد حتى بقيت نعلاه، فقال أبو عبيدة: إن هذا لا يصلح إلا بهذا ـ واقتسمهما، فقال خالد: أجل. ما أنا بالذى أعصى أمير المؤمنين، فاصنع ما بدا لك.

وأقام خالد لفترة متحيرًا لا يدرى: أمعزول هو أم غير معزول! فلم يشافهه أبو عبيدة بذلك على مسئوليته تكرمةً له، إلى أن جاء لخالد كتاب من عمر يستبطئه ويدعوه إلى الإقبال عليه بالمدينة، فعرف خالد ما كان من أمر عزله، فعاتب أبا عبيدة قائلاً: «رحمك الله! ما أردت إلى ما صنعت؟! كتمتنى أمرًا كنت أحب أن أعلمه قبل اليوم!»، فقال له أبو عبيدة: «والله ما كنت لأروعك ما وجدت لذلك بدًّا».

ومن حق أبى عبيدة علينا، ونحن نتأمل فى هذه الوقائع، أن نشهد له بأنه قد اجتمعت فيه من السجايا والشمائل، ما جعله واسطة العقد فى هذا الموقف الحزين، فكان الأمير الذى يصدع لأمر أمير المؤمنين، والأمير الذى يعطى لخالدٍ حقه ما وجد إلى ذلك سبيلاً، وتحجزه سماحته عن الإثقال على خالد فى المشهد العسير على مرأى من المسلمين بالمسجد، فيغضى غير مرة عن عدم إجابة خالد عليه، مقدرًا مشاعره، ثم يتحمل على مسئوليته عدم إخبار خالد بنبأ عزله، إكرامًا وتقديرًا لعظيم قدّر له مكانته، وأبى أن يزيد إلى أشجانه أو يروعه، فكان على ما وصفه الصديق أبو بكر الهين اللين، الرفيق السمح، الذى تجمعت فيه المناقب التى أثراها الإسلام فيه.

قيل إن خالدًا قبل أن يغادر إلى المدينة، رجع إلى قنسرين فخطب الناس وودعهم، وكذلك ودع أهل حمص، وكان مما قال فى بعض خطبه: «إن أمير المؤمنين استعملنى على الشام، حتى إذا صارت بثنية[1] وعسلاً عزلنى وآثر بها غيرى».. فنهض رجل من السامعين فقال: صبرًا أيها الأمير فإنها الفتنة. فما تردد خالد أن قال له: «أما وابن الخطاب حى فلا».

ولما قدم خالد على عمر بالمدينة قال له معاتبًا: «لقد شكوتك إلى المسلمين، وبالله إنك فى أمرى غير مجمل يا عمر!»، فقال له عمر: من أين هذا الثراء؟ فقال: «من الأنفال والسهمان، ما زاد على الستين ألفًا فهو لك» فزادت عشرين

(١) نسبة إلى البثنة وهى بلدة بدمشق مشهورة بالحنطة الجيدة.

ألفًا فضمها عمر لبيت المال، وقال لخالد: «يا خالد والله إنك علىّ لكريم، وإنك إلى لحبيب ولن تعاتبنى بعد على شىء». وأرسل عمر إلى الأمصار يأمر الولاة أن يعلنوا فيها بلسانه: «إنى لم أعزل خالدًا عن سَخْطة ولا عن خيانة، ولكن الناس فتنوا به فخشيت أن يوكلوا إليه ويبتلوا، وألا يكونوا بعرض فتنة».

ونقل الرواة، أن عمر اشتد حزنه عندما علم بموته، فاسترجع مرارًا ونكس رأسه وهو يكثر من الترحم عليه، ثم قال: «كان والله سدَّادًا لنحور العدو ميمون النقيبة»، وقال معلنًا فضله ذاكرًا حسناته: «قد ثَلم فى الإسلام ثُلمة لا تُرتق» وقيل له: لم يكن هذا رأيك فيه، فلم يحجم أن يعلن قائلاً: «ندمت على ما كان منى إليه».. وقال حينما بلغه أن خالدًا لم يترك من حطام الدنيا غير فرسه وغلامه وسلاحه: «رحم الله أبا سليمان كان على غير ما ظنناه به».

وقد كان عمر ينهى عن الندب والعويل على الموتى، فلما سئل أن ينهى عن عويل بنات عم خالد يوم مات، قال: «دعهنّ يبكين على أبى سليمان، ما لم يكن نقع أو لقلقة[1] على مثله تبكى البواكى»!

ونقل الرواة: ما فاه به عمر وهو يجود بروحه، أنه لو كان أىٌّ من أبى عبيدة ابن الجراح أو خالد بن الوليد حيًّا لاستخلفه، فقد سمع رسول الله ﷺ يصف أبا عبيدة بأنه أمين الأمة، ويسبغ على خالد أنه سيف الله المسلول.

وقد جمع عزل خالد فى المرتين، وقد خلط بعض المؤرخين بين الواقعتين، جمعه مع أبى عبيدة بن الجراح فى مواقف تشهد للرجلين كما شهد لهما الفاروق عمر ذاته، بأنهما تلاقيا على خير ما بثه الإسلام من سجايا وشمائل ومناقب فى هؤلاء العظماء.

---

(١) إثارة التراب والإفراط فى العويل.